

جامعة الوسط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القيروان

الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي

المجلد الثاني

تأليف

أحمد الطويلي

تصدير

الدكتور الشاذلي بويحيى

منشورات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القيروان

1996

جامعة الوسط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القيروان

الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي

(600 ـ 950 هـ / 1204 ـ 1543 م)

المجلد الثاني

تأليف
أحمد الطويلي

تصدير
الدكتور الشاذلي بويحيى

منشورات
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ القيروان

1996

القسـم الثالـث :

الإنتـاج الأدبـي شعـرا ونثـرا

البـــــاب الأول

الشـعـــــر

تمهيـد : انه من الصعب أن نعالج الأغراض الشعرية في الأدب الحفصي، لعدة اعتبارات : لقلة النصوص التي وصلتنا، ولطيلة المدة التي تهمنا، ولتشتت هذه النصوص في مختلف المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة، ولغياب كثير من النصوص في العديد من المجالات، بل لافتقارنا للنصوص في العديد من الفترات خلال العهد الحفصي، فلا يمكن أن تكون لنا نظرة شاملة كاملة تستوعب جميع الشعراء في هذه الفترة الزمنية الطويلة الممتدة على مدى ثلاثة قرون ونصف القرن، وسنكتفي ببعض القصائد والمقطوعات التي يمكن أن تكون لها دلالاتها الأدبية والتاريخية والحضارية، والتي تمكننا من تقديم الخطوط الرئيسية في الأغراض الشعرية. ونلاحظ أننا اضطررنا لندرة النصوص في بعض الاغراض الى عدم تخصيص فصول لها ورأينا ادماجها في فصول اخرى مثل غرض الزهد ادمجناه في فصل المواعظ الدينية والاخلاقية وغرض الحماسة تناولناه في فصول المدح والفخر ونجدة الاندلس .

الفصـــل الاول

المــــــدح

وسبيل الشاعر اذا مدح ملكا أن يسلك طريقة الايضاح والاشادة بذكره للممدوح، وان يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل، فان للملك سآمة وضجرا ربما عاب من أجلها ما لا يعاب .

ابن رشيق : « العمدة » : ص 343 .

أشارت الكتب التاريخية الخاصة بالدولة الحفصية الى بعض الأخبار المتعلقة بمدح خلفاء بني حفص، لكننا لا نجد نصوصا شعرية كاملة في هذه الكتب ما عدا بعض الأبيات القليلة جدا أو بعض القصائد المشهورة مثل سينية ابن الأبار التي أوردها ابن خلدون في تاريخه أو القصائد التي أوردها ابن الشماع لوالده في الخليفة المنتصر. الا أننا نجد في دواوين بعض الشعراء الحفصيين المطبوعة أو المخطوطة وفي عدد من الكتب الأدبية والمصادر نصوصا شعرية تساعدنا على الكشف عن ملامح غرض المدح في الشعر الحفصي .

1 – مدح الخلفاء والأمراء :

اتسمت مدائح الشعراء الحفصيين لخلفاء بني حفص وأمرائهم [1] بسمة التجديد في المعاني المدحية ، فقد ظهرت بالاضافة الى الصفات التقليدية التي

1) سنقتصر على مدح الخلفاء والأمراء، اذ أن مدح الوزراء والوجهاء وغيرهم يكاد ينعدم لضياعه، وقد بقيت بعض المدائح في هؤلاء راجعة الى أواخر العهد الحفصي لكنها مهلهلة البناء، ضربنا عليها . أما أهم المصادر لهذا الغرض فهي : « نفح الطيب »، دواوين حازم القرطاجني وابن الأبار والخلوف و « التعريف » لابن خلدون بالنسبة الى مدائحه هو. ومن الدواوين الضائعة ديوان ابن عربية المسمى « قصائد المدح ومصائد المنح » (الأعلام : ج 4 ، ص 371) .

وسموهم بها مثل الشجاعة والجرأة والاقدام في الحروب والايقاع بالأعداء والكرم والجود وحسن الأخلاق وأصالة الفكر، معان جديدة صارت تحتل المرتبة الأولى في قصائدهم المدحية .

لقد كان هؤلاء الشعراء لسان الدعوة الحفصية، يقومون بالدعاية للمذهب الجديد والمبادىء الدينية التي قامت عليها الدولة الموحدية، ونراهم يواكبون أهم الأحداث السياسية والحربية والثقافية التي عاشتها الدولة الحفصية، فسجلوها في قصائدهم المدحية وأشاروا الى الفتن والمعارك التي خاضها الخلفاء والامراء الحفصيون ومجدوا المنشآت الثقافية والعمرانية التي أحدثوها .

وقد وصف الشعراء المادحون سلاطين بني حفص في أجلى صورة مثالية من الاخلاق وحسن السياسة والسلوك المتسم بالحكمة والشجاعة وأصالة الرأي. ولنا في جل هذه المدحيات دقة تصوير تدل على مقدرة هؤلاء الشعراء على صياغة قصائدهم المدحية، فنجدها عامة متينة البناء، جزلة المعاني، نقية الألفاظ غير مبتذلة ولا سوقية كما اشترط ابن رشيق أن تكون عليه المدائح. وليس من السهل ارضاء خلفاء بني حفص خاصة أبا زكرياء والمستنصر، وقد كانا أديبين شاعرين، وكأن هذين السلطانين قدأنشآ سنة حميدة لخلفاء بني حفص حتى صار الشعر يحتل مكانة مهمة في بلاطهم. قال ابن فضل الله العمري : « وهؤلاء الملوك الموحدين لم يزالوا منذ ملكوا ممدوحين تصغي الى المدائح مسامعهم وتهتز به أنديتهم ومجامعهم »[2]. ولم يكن يخلو بلاط خليفة من خلفاء بني حفص من شعراء مادحين يرددون مفاخره وانتصاراته الحربية .

ويمكن أن نفصل الأغراض المدحية في هذه المدائح الى خمسة عناصر : المدح بالنسبة، المدح بالخصال الفكرية، المدح بالانتصارات العسكرية والتغلب على الأعداء، المدح بتشييد المنشآت العمرانية والحضارية مثل القصور والحنايا التي أوصلها المستنصر الى رياض أبي فهر وأجرى فرعا منها الى جامع الزيتونة .

---

2) وصف افريقية : ص 27 .

1 - **المدح بالنسبة** : مدح الشعراء الحفصيون ملوك بني حفص بنسبتهم المضرية وبأنهم ينتمون الى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب وبأنهم من سلالة أبي حفص عمر الهنتاتي من أصحاب الامام المهدي بن تومرت العشرة، والشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الذي اختاره الخليفة الناصر الموحدي لولاية افريقية[3] فسكنها وقضى على ثورة الميورقي بها ولم تهزم له فيها راية [4]. يقول حازم القرطاجني مادحا أبا زكرياء : من المقتضب

مصطفى الأرومة من * غالب ومنتخب
قد سما الى مضر * في العلا له نسب
جده الرضى عمر * صارم الهدى الذرب
كم علًى ومكرمة * أحرزت به العرب

ويقول ابن خلدون في مدح الخليفة أبي العباس أحمد ناسبا آل حفص الى عمر بن الخطاب وعمر الهنتاتي، وكم كان الحفصيون يعتزون بنسبتهم العمرية المزدوجة : من الرجز

قوم، أبو حفص أب لهم وما * أدراك والفاروق جد أول

وكانت أهم صفة يلح عليها أحمد الخلوف في مدائحه لأبي عمرو عثمان والامير محمد المسعود هي النسبة الى الفاروق يقول : من الطويل

اذا أسرة الفاروق قامت لمفخر * أقرت لعلياها السراة بلا نكر

ويمتزج هذا المدح بالنسبة الحفصية بالمدح بقيام خلفاء بني حفص بالدعوة الموحدية وتمثيلهم لها خاصة بعد أن أعلن أبو زكرياء الحفصي استقلاله عن الخلفاء

---

3) لم يقبل هذه الولاية الا على ثلاثة شروط : اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقية في ثلاث سنين واختيار رجاله بنفسه من الموحدين وأن لا يتعقب عليه الخليفة في أموره في تولية أو عزل. انظر : الزركشي : تاريخ الدولتين : ص 18 .

4) الباجي المسعودى : الخلاصة النقية : ص 59 .

الموحدين بالمغرب سنة 634، فصار الشعراء المادحون لبني حفص دعاة للدعوة الموحدية، يرددون المبادئ العامة التي يقوم عليها المذهب الموحدي، ونراهم يلحون على معنى « الهدي » في شعرهم، وأصبح الخليفة الحفصي في مدائحهم هو « الهادي » الذي يصحبه « نور الله » [5]. يقول حازم : من الطويل

أبو زكرياء سراج الهدى الذي * تود الدراري في العلى لو تصاقبه

... تراث الهدى عن منجب بعد منجب * مهذبة صارت اليه أطايبه

وأولى امرئ أن يورث الهَدْيُ عنه من * أبوه حواريُّ الامام وصاحبه

... امام الهدى هنيت وليهنأ الورى * بعيد، أعاد الدهر غضا شبابه

... أبان سبيل الحق هديك بعدما * عفت – مثلما تعفو الطلول – مذاهبه

أرى الناس منهاج الرشاد فأوضعوا * على سَنَنٍ يهدي الى الحق لاحبه

ويصل هذا المدح أحيانا الى تقديس منصب الامامة الى حد التأليه. فمن قصيدة تفيض بالمبالغات أنشدها حازم للمستنصر، تذكرنا بمدحيات ابن هانيء الأندلسي، هذه الأبيات التي استهل بها خطابه : من الطويل

لك الحمد – بعد الحمد لله – واجب * فمن عنده ترجى ومنك المواهب

وطاعتكم من طاعة الله لم يزل * لها منهج يهدي الى الحق لاحب

علت بك للاسلام والدين حجة * وعز حمى للمسلمين وجانب [6]

ويمدح ابن خلدون أبا العباس أحمد بنفس هذه المعاني الموحدية المهدوية وينعت بني حفص بأنهم شيعة للرحمان : من الكامل

من شيعة المهدي، بل من شيعة التوحيد جاء به الكتاب يفصل

---

5) نلاحظ أن حازم يلح على أن أبا زكرياء هو خليفة المهدي بل « المهدي الجديد » انظر ديوانه : قصائد : ص 91-95 .

6) المصدر نفسه : ص 96 .

بل شيعة الرحمان ألقى حبهم * في خلقه فسموا بذلك وفضلوا

شادوا على التقوى مباني عزهم * لله ما شادوا بذاك وأثلوا (7)

2 – **المدح بالخصال الفكرية** : نجد طيلة العهد الحفصي قصائد المدح تهتم بمدح الخليفة بالأدب والعلم ووفرة العقل ورجاحة الفكر. يقول حازم في مدح أبي زكرياء : من الطويل

له العلم والعليا ، له الحلم والحجى * له الجود تهمي بالنضار سحائبه (8)

ويمدح المستنصر بتفتيقه للأفكار وبتضلعه في نقد الشعر، يقول في قصيدة أخرى مادحا اياه بالخطابة والفصاحة : من الكامل

فصل الخطابة والخطوب بمنطق * عذب وعضب لم تخنه مضارب (9)

ويقول في موضع آخر عن المستنصر : من الطويل

تفتح في القرطاس يمناه فوق ما * تفتح في الروض السحاب السواكب

فكم نص أبكار المعاني خطابه * فاضحت به الأفكار وهي خواطب !

...فإن أجتلب شعرا اليه فانني * الى هجر تمرا – كما قيل- جالب (10)

ولا يتخلف أحمد الخلوف عن اسماعنا نفس اللهجة في أبي عمرو عثمان، يقول عنه مرددا نفس المعنى في كثير من قصائده المدحية : من البسيط

في كفه قلم، فصل الخطاب غدا * مبرأ من خنى غي وفحشاء

يلقي على الطرس أشياء مغيبة * كأنه قد تلقاها بايحاء

---

7) ابن خلدون : التعريف : ص 251 .
8) حازم : قصائد : ص 93 .
9) المصدر نفسه : ص 90 .
10) المصدر نفسه : ص 101 .

3 – **المدح بالانتصارات العسكرية** : غالبا ما تكون المدائح الحفصية تؤرخ للأحداث وهي تنظم عادة بمناسبات معروفة يقدم فيها الشعراء الى ممدوحيهم التهاني بالخلافة أو بولاية العهد أو بقدوم عيد الفطر أو عيد الأضحى أو بالانتصارات الحربية أو بمناسبات أخرى [11]. ويمكن أن تتخذ هذه القصائد وثائق تاريخية. فحين تغلب المستنصر سنة 666 على الأعراب من بني رياح بعد أن استفحل شرهم في البلاد منذ هجمتهم على القيروان وتخريبهم اياها، نرى ابن أبي تميم الحامي يهنئ الخليفة بالانتصار ويبشره بالفوز الدائم، ويبرر قتل الثائرين وصلبهم تبريرا شرعيا، ويدافع عن سياسة المستنصر حامي حمى الاسلام : من الطويل

وهام جناة أبرزوها على القنا * فشق بنجاة عندها ونجاح

فيا حسن ما قرت به أعين الورى * رؤوس رياح في رؤوس رماح

فهذي دماء المارقين مباحة * وهذا دم الاسلام غير مباح

بمستنصر يرمي العدى بكتائب * تعم نواحي أرضهم بنواح [12]

وتبارى الشعراء بهذه المناسبة ، فأنشد حازم قصيدة وصف فيها انهزام الاعراب متشمتا بهم ورسم قوة المستنصر وأطوار المعركة التي خاضها ضدهم، فيبدو كأنه يلتذ بحق بتصور الجيش الحفصي وهو يزحف على العدو بعدته وعتاده ليمحقه : من الكامل

بلغت في الأعداء كل مراد * وغدا لك التأييد ذا اسعاد

طوقتهم بظباك اذ لم يشكروا * ما طوقوا من أنعم وأيادي [13]

---

11) من ذلك أبيات مدح بها أبو القاسم بن البرا المهدوي المستنصر حين ضرب أجزاء الدنانير العشارية والخماسية . انظر : محمد النيفر : عنوان الأريب : ج 1 ، ص 72 .

12) ابن قنفذ : الفارسية : ص 130 ، وورد خطأ في شكل الكلمة الأولى، بالجر لا بالنصب .

13) المصدر نفسه : ص 130 ، وديوان «قصائد » : ص 114 .

ولا تكاد تخلو مدحية من مدحيات حازم في بني حفص من هذا العنصر المدحي فيمجد الجيش ويصف جوانب المعركة وصفا ملحميا دقيقا ولا يخفي الشاعر أمله كل مرة في استعادة المدن الأندلسية السليبة بفضل قوة الخلافة الحفصية، فما ان خلف المستنصر أباه حتى هب حازم يدعوه الى غزو الأندلس وهزم الكفار بها [14] .

وواكب أحمد الخلوف انتصارات أبي عمرو عثمان الحربية وفتوحاته العسكرية، فكان يمجدها وينافح عن الخلافة الحفصية متأثرا بروح أبي الطيب المتنبي، مرتسما رسمه فكان يصور ممدوحه في أكمل صورة من الشجاعة والاقدام وأصالة الرأي والتوفيق، ونلمس في تصويره المبالغات والعديد من الملامح التي رسمها المتنبي لدى سيف الدولة، يقول الخلوف، مظهرا الممدوح يبث الرعب في قلوب الأعداء حتى قبل أن يولدوا : من البسيط

مجرد سيف رأى من عزيمته * تكاد أن تختشيه أنفس النطف

ويقول في قصيدة أخرى في أبي عمرو عثمان : من الطويل

تؤمل نعماه ويخشى انتقامه * لطالب سلم أو لطالب فتنة
أمين بني الفاروق في حفظ سرهم * وعدة نجواهم لدى كل شدة
... يصول ويحمي شرعة نبوية * بسمر رشاق أو ببيض جلية
... وان هز يوم الحرب عامل رمحه * أراك قضيبا مثمرا بالمنية

ولا يخلو العهد الحفصي من أخبار الثورات المتتالية والحروب التي ما انفك الخلفاء الحفصيون يشنونها على الثائرين [15] ، اذ كان الأعراب من بني

---

14) انظر: «قصائد» : ص 142، وانظر أيضا القصائد أرقام : 78، 83، 134، 135، 158 .

15) التجاني : الرحلة : ص 269 ، 270 ، يذكر التجاني أبياتا لأبي زيد عبد الرحمان الأصولي وأخرى لابن الأبار بمناسبة قتل يعقوب صاحب الدعوة الفاطمية وتغلب أبي زكرياء على حركته .

هلال خاصة يهددون دوما بالانتقاض على الدولة، فكان الشعراء يمدحون الملوك الحفصيين بأنهم يعيدون كل مرة الأمن للبلاد ويهدئون من روع السكان وينشرون الطمأنينة في نفوسهم .

4 – **المدح بتشييد المنشآت العمرانية** : مدح الشعراء خلفاء بني حفص بما بذلوه من أياد لتجميل تونس بما أنشؤوه فيها من منشآت عمرانية وحضارية تأنقوا في بنائها. وقد نوه حازم في مقصورته وفي بائيته التي تصل الى ستة وتسعين بيتا[16] بأعمال المستنصر الحضارية حتى صارت تونس في عهده محل الأنس، مكسوة بالحدائق، مزهوة بالقصور والمصانع والقباب، مزودة بالمياه العذبة، وصار الناس فيها بخير عيشة وبحماية كاملة يكفلها لهم جيشه العرمرم. ولا يني حازم يردد هذه المعاني في جل مدائحه ويلاحظ خاصة ازدهار الحياة الأدبية بتونس في صدر الدولة الحفصية لاسيما في عهد المستنصر : من المقتضب

راق حسن حضرته * وانتهى له الأدب
فهي لا تقاس بها * جلق ولا حلب [17]

ويقول في البائية المذكورة : من الطويل

وقد أدرك الراجي بحضرتك المنى * قد أحْضِرَتْ آماله والمآرب
جلبتَ له الأمواه حتى تفجرت * مشارع منها جنة ومشارب
لكل امرئ فيها من الماء قسمة * وشرب كما كانت لقحطان مأرِب [18]

ويمدح ابن خلدون أبا العباس أحمد بتألق الجانب الحضاري بدولته مشيرا الى مكرمات هذا الخليفة بتونس : من الكامل

---

16) قصائد : ص 96-101 .
17) المصدر نفسه : ص 104 .
18) المصدر نفسه : ص 96. انظر أسفله الفصل الخاص بالوصف حيث عولج وصف المنشآت العمرانية والمعالم الحضارية، ص 660-664 .

حيث القصور الزاهرات منيفة * تعنى بها زهر النجوم وتحفل

حيث الخيام البيض يرفع للعلا * والمكرمات طرافهـا المتهدل

وكم تكثر الاشارة الى ما وصلت اليه العاصمة الحفصية في عهد أبي عمرو عثمان من مجد وأبهة ومكانة مرموقة في مدائح أحمد الخلوف لهذا السلطان، ولعل هذا البيت يلخص كل المعاني الحضارية الواردة فيها : من الكامل

قد أعطيت ترشيش منك نهاية الـ * حـظ المقـوم والنصيب الأوفـر

II - مدح الرؤساء والأدباء والعلماء :

لم يقتصر المدح على الخلفاء والأمراء من البيت الحفصي بل نرى الشعراء يمدحون شخصيات بارزة في عصرهم في تونس ورغم أن معظم النصوص الشعرية المتعلقة بهذا الغرض قد تلف فان لنا بعض المدائح المهمة الدالة على هذه الناحية. فحازم القرطاجني يمدح أبا عبد الله محمد بن أبي الحسين الحاجب أمين سر الخليفة والشاعر الأديب [19] وابن القصيرة يمدح القاضي أبا القاسم بن البرا المهدوى حاثا اياه على الرفد والعطاء يقول [20] : من المسرح

يا سيدي في الورى ويا سندي * ومن نداه يزين كل ندى

أنت فقيه وعالم وأنا شاعرك المرتجي نوال يد

ولأبي الحسن علي التجاني أمداح وافرة في أبي محمد بن الطير القابسي[21] لكنها ضائعة، ولابن أبي تميم في أبي عبد الله محمد بن علي بن يونس الهنتاتي قصيدة مدحية في تسعة وسبعين بيتا يهنئه فيها بختم حفيده يونس للقرآن واعتذاره له، واسم هذه القصيدة : « رقم العذار في التهنئة بالختمة والاعذار » قال عنها

19) قصائد : ص 107-111 .

20) ابن الطواح : سبك المقال : ص 143 .

21) المصدر نفسه : في ترجمة علي التجاني .

ابن رشيد في رحلته إنه «أجاد فيها ما شاء» وأوردها له [22].

ومن القصائد التي مدح بها الشعراء مشائخهم لغايات علمية بدافع العرفان والتقدير لهم نذكر قصيدتين : الأولى تائية الأبي في ابن عرفة يبدي فيها اعجابه بدروسه معقبا على أبيات نظمها ابن عرفة في شروط التعليم. قال الأبي مخاطبا أستاذه مشيرا الى الخصال التي ينبغي أن تتوفر في صاحب المجالس العلمية : من الطويل

يمينا بمن ولاك أرفع رتبة * وزان بك الدنيا بأكمل زينة

لمجلسك الأعلى كفيل بكلها * على حين ما عنها المجالس ولت

فأبقاك من رقاك للخلق رحمة * وللدين سيفا قاطعا كل فتنة [23]

والقصيدة الثانية لأحد تلامذة ابن عصفور يمدحه فيها وهو ابن عبد المجيد الغزولي [24]. وقد بقيت بعض المدائح ترجع الى أواخر العهد الحفصي قيلت في بعض العلماء والأولياء والصالحين ولكنها مهلهلة البناء، رديئة السبك، سيئة التعبير .

وبالجملة فان هذه المدائح جميعها تبرز قيمة الممدوح وتلح على رسم كرمه وجوده وما يمتاز به من خصال وشيم. وتتسم عادة – في جلها – بالثراء اللغوي، وجمال الصور، والتنوع في الاساليب البلاغية، وغالبا ما تؤرخ للأحداث وتتضمن اشارات الى مناسبات تاريخية خاصة ويمكن أن تتخذ وثائق ذات قيمة لا تنكر .

III – علاقة الشاعر بالممدوح وطريقة مدحه :

قلما تختلف دوافع الشعراء الى المدح، ويمكن أن تلخص في طمع الشاعر في عطاء الممدوح ورفده أو في التحصيل على خطة أو قضاء حاجة. وسنقتصر هنا

---

22) ج 2، ص 379–382، ونشير الى ديوان ابن حريز الضائع : « مهب نواسم المدائح ومصب غمائم المنائح » في مدح أحد حجاب الخلافة الحفصية .

23) ابن مريم : البستان : ص 193 .

24) ابن الطواح : سبك المقال : ص 99–105 ، في ترجمة الكتاني .

على ذكر شاعرين اثنين مع بيان دوافعهما الذاتية وخصائص مدحهما وهما عبد الرحمان بن خلدون وأحمد الخلوف .

1- مدح ابن خلدون للسلطان الحفصي أبي العباس أحمد :
اتسمت مدائح ابن خلدون للسلطان أبي العباس بسمة التذلل المتولد عن الخوف والاشفاق من نجاح مؤامرات أعدائه للنيل منه والاطاحة به لدى السلطان [25]. لقد نظم قصيدة لامية صرف وقتا طويلا في تنميقها وترصيف ألفاظها ومعانيها بدأها بقوله : من الكامل

هل غير بابك للغريب مؤمل * أو عن جنابك للأماني معدل [26]

يصور فيها حالته النفسية، وقد اكتنفه الاعداء من كل جهة يهددونه صبح مساء، تأتيه التقارير عنهم من العيون والارصاد الذين بثهم فيهم. يقول مقدما هذه القصيدة : « وكان مما يغرون به السلطان علي، قعودي عن امتداحه، فاني كنت قد أهملت الشعر وانتحاله جملة، وتفرغت للعلم فقط، فكانوا يقولون له : انما ترك ذلك استهانة بسلطانك، لكثرة امتداحه للملوك قبلك، وتنسمت ذلك عنهم من جهة بعض الصديق من بطانتهم، فلما رفعت له الكتاب [27] وتوجته باسمه، أنشدته ذلك اليوم هذه القصيدة امتدحته بها، وأذكر سيره وفتوحاته، وأعتذر عن انتحال الشعر، واستعطفته بهدية الكتاب اليه » [28].

ولقد حاول ابن خلدون أن يجدد في هذه القصيدة، فأتت الأبيات متسمة بالتصنع والتفكك والاعتساف في تنضيد المعاني المدحية المعروفة. ولم يستطع الشاعر أن يسمو بشعره في مدح السلطان الحفصي لقوة شخصية صاحب «المقدمة» ونفاذ فكره من جهة ومن جهة أخرى لتغلب نزعة المؤرخ فيه على النزعات الأخرى، فبالغ في وصف حروب السلطان وذكر مراحلها السياسية والتدقيق في جزئياتها

25) انظر أعلاه ترجمة ابن خلدون رقم 151 .
26) انظرها في «التعريف» لابن خلدون : ص 250-258 .
27) أي تاريخه .
28) التعريف : ص 250 .

والنص على ظروفها التاريخية. وقد أراد ابن خلدون أن يجعل من السلطان أحمد بطلا عسكريا فملأ شعره بالاشارات التاريخية لذلك نراه يلجأ أحيانا كثيرة لتفسير بعضها في تعاليق خاصة، لكن شعره لا يرقى الى صف شعر المتنبي في سيف الدولة حينما رام أبو الطيب جعل ممدوحه بطلا قوميا يدافع عن الاسلام والعروبة .

وتصطبغ مدحيات ابن خلدون بصيغة عامة تتميز بالتعميم في الاحكام، والتجريد في الأفكار، والايغال في الوصف، ولهجة عقلية فكرية لم يستطع الشاعر أن يعوضها بلهجة عاطفية رقيقة كم ود أن يصبغ بها شعره .

ولم يتمكن ابن خلدون من أن يتخلص من شخصيته العلمية وثقافته اللغوية المتينة واتساع زاده التاريخي، وقد روى لنا نفسه في شعره ما عاناه في نظمه لهذه القصيدة المدحية، ورغم ذلك أتت مفككة المقاطع، متصنعة المعاني. قال يعتذر للسلطان الحفصي وقد أرهقه الأعداء وأتعبته تقلبات الزمان : من الكامل

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت * مني الطباع فكل شيء مشكل
تسمو الى درك الحقائق همتي * فأصد عن ادراكهن وأعزل
وأجد ليلي في امتراء قريحتي * وتعود غورا بينما تسترسل
فأبيت يعتلج الكلام بخاطري * والنظم يشرد والقوافي تجفل
... وبنات فكري ان أتتك كليلة * مرها ، تخطر في القصور وتخطل
فلها الفخار اذ متحت قبولها * وأنا على ذلك البليغ المقول

ولم تغب خلال هذه القصيدة لهجة مباهاة الشاعر بنفسه وافتخاره بكتابه الذي أهداه اليه، قال بكل اعتداد وزهو واعتزاز بتأليفه، شاعرا بقيمته واعيا بما فيه من جديد : من الكامل

أهديت منه الى علاك جواهرا * مكنونة وكواكبا لا تأفل
وجعلته لصوان ملكك مفخرا * يبأى الندي به ويزهو المحفل
والله ما أسرفت فيما قلته * شيئا ولا الاسراف مما يجمل

وفي قصيدة أخرى سينية مدح بها السلطان الحفصي حين أبل من مرضه[29] لم ينس الشاعر نفسه مازجا التواضع بالتباهي بشعره والاعتذار عن عدم امتيازه في قريضه : من الكامل

واليكهـا منـي على خجـل بهـــا * عـذراء قـد حليـت بكـل نفيـــس

عـذرا فقـد طمـس الشباب ونـوره * وأضاء صبح الشيب عند طمـــوس

لو لا عنـايتـك التـي أوليتنــــي * ما كنت أعنى بعدهـا بطــــروس

وأخيرا ان أهم ميزة تميزت بها مدحيات ابن خلدون هي طغيان شخصيته فيها وكثرة الاشارات المركزة على حياته واعتداده بنفسه وبقصائده، وتتخللها أحيانا شكوى من الناس والزمان :

أنحى الزمان علي في الأدب الـذي * دارستـــــه بمجـامـــع ودروس

فسطـا على وفرى وروع مـأمنــــي * واجتث من دوح النشاط غروسـي

ورضاك رحمتـي التـي أعتـدهـــا * تحيي مني نفسي وتذهـب بوسـي

2 – مدح أحمد الخلوف لأبي عمرو عثمان ولولي العهد محمد المسعود:

في العهد الحفصي الأخير استفحلت النزعة الذاتية في القصيدة المدحية، فصـار الشـاعر يتباهى فيها بشعره ويغالي في بيان قيمته الشعرية. وتتجلى هذه النزعة خاصة في مدحيات أحمد الخلوف، فلا تخلو واحدة منها من تذييلها بذكر اسمه ونسبه والدعاء لنفسه وأشياخه الى جانب الدعاء للسلطان وولي عهده. ولا ينسى الخلوف أن يصف شعره : من البسيط

وهـاك عـذراء نظـم قـد زففـت بهـــا * لخيــر بعـل يــرى من خيـر أكفــاء

جلت عن الوصف اذ جلت صناعتهـا * عـن قبـح خـرم واقـــواء وأيطـــاء

ان لم تكن صنعة الأعشى فصانعها * يـروي عـن ابـن هــلال شمــس لألاء

---

29) المصدر نفسه : ص 259-261 .

ونلاحظ أن النفس الشعرى عند الخلوف – رغم طول قصائده – لم يضعف والثوب اللغوى لم يخلق والزينة البلاغية لم تبل. ولا يتورع من ذكر قصده وهو التكسب وطلب الصلات : من الطويل

دعاني على بعد الديار نواله * فحقق آمالي وأوهى شكيتي

... فجد بالرضا لابن الخلوف فانما * أيادى رجاه نحو جودك مدت

ويكثر من دعوة السلطان الى العطف عليه واجارته من ضيق الزمان أو كيد الحساد : من الطويل

اليك، رعاك الله، مدحة مقتر * يحاشيك أن تلقى المديح بلا بر

شكوت بها جور الزمان وانما * شكوت أخارق الى الملك البر

بل ويدقق أحيانا ما يطلبه من الخليفة فلا يتورع من التماس كسوة : من الكامل

واسمح لعبدك يا غمام بكسوة * عقمت بمثل نسيجها صنعاء

وهكذا كان مدح أحمد الخلوف مدحا تكسبيا واكب فيه كل معارك الممدوح العسكرية وانتصاراته فيها، وعالج فيها جميع العناصر المدحية التي تناولناها أعلاه في هذا الفصل .

الفصـــل الثانـــي
المـــــدح النبـــوي

اعلم ان الشعر في التوحيد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وفي الزهديات والمواعظ وبالجملة في كل مقصود منه الحق من أصعب ما يحاول البليغ وفيه تسقط الفحول .

ابن شباط : صلة السمط :

ج 1 ، ص 12 ب .

كانت افريقية منذ الفتح الاسلامي قلعة من قلاع الايمان والصمود الديني، كانت الرباطات على الشواطئ التونسية معمورة بالمواطنين تملأ قلوبهم التقوى ويملك نفوسهم الورع. وقد نشأت لدى بعض الشعراء رغبة في التعبير عن العواطف الدينية فنظموا المدائح النبوية ودبجوا القصائد الدينية خاصة منذ أواخر العهد الزيرى حين بدأ النصارى يشنون الحملات لاحتلال المدن التونسية. ونجد في الادب الحفصي عناية أكثر بالادب الديني وميلا شديدا اليه نظما وشرحا خاصة في آخر العهد الحفصي حينما اشتدت الفتن وكثرت الحروب .

ان شعر المدح النبوي من أصعب ما يعالج فنيا من الأغراض كما لاحظ ابن شباط، وهو يقوم على الايمان العميق في النفس ويقتضي تكونا متينا في السيرة النبوية وتضلعا في اللغة والعروض وتمكنا في البديع، ومن الشعراء الفحول الذين برزوا في المدح النبوي أبو يعقوب يوسف بن السماط المهدوى، كان له ديوان ديني مشهور متداول في عصر التجاني [1] ، وحازم القرطاجني [2] ، وأحمد بن السكان

---

1) أورد منه التجاني نماذج طويلة وقال عن صاحبه : شاعر « عالي الطبقة جدا » انظر الرحلة : ص 381 ، والترجمة أعلاه رقم 60 .

2) اشتهر بقلبه لمعلقة امرئ القيس وصرفها للمديح النبوي، وقد فازت باعجاب النقاد، وله تسبيحان ودعوة الى الوقوف على قبر الرسول، انظر : قصائد : ص 174-175 ، 188-193، والترجمة أعلاه رقم 35 .

صاحب قصيدة « خلاصة الصفا من خصائص المصطفى » وهي تزيد على 320 بيتا[3] ، وأيمن أبو البركات المتسمى بـ« عاشق النبي » [4]، وأحمد الخلوف صاحب ديوان ديني ضخم، وقد تميز شعره بطول النفس في القصائد حتى صار ينادى « خديم النبي » [5] .

وتبتدئ المدحية النبوية إمّا مباشرة بالتعلق بالرسول وبيان محبته مثل قصيدة أحمد الخلوف التي أولها : من الوافر

عليك توكلي ولك افتقارى * ومنك تطلبي وبك انتصاري

وفيك محبتي واليك أمرى * وهل الاك قصدي واختياري

وهي من 140 بيتا، واما بمقدمة غزلية مثل قصائد الخلوف المعنونة بـ « استرواح القبول بمدح طه الرسول » و« جَنة المتشوف وجُنة المتخوف » و« زهرة المتنشق وزهرة المتعشق » و« تحية المشتاق ونتيجة الأشواق » وأولها : من البسيط

لمرسل الصدغ في خديه آيات * قامت بتصديق دعواه الأدلات

وللعذار حديث صح مسنده * اذ أخرجته على الخد الروايات

وجاءت مقدمتها الغزلية فيما يقرب من الثلث من كامل القصيدة (91 بيتا من 330 بيتا) [6]. وتبتدئ المدحية حينا آخر بوصف الطبيعة [7] ، وأحيانا بمقدمة تمت الى غرض المديح النبوى مباشرة ، تتعلق بمعنى زوال الحياة والندم على ما فات من تفريط في حق الله والرسول وتوان في العبادة كما في لامية ابن السماط التي أشار

---

3) قال عنها العبدري : « هي مهذبة منقحة لا حشو فيها البتة »، انظر : الرحلة : ص 269 ، وأورد منها نموذجا وعينة أخرى من شعره، انظر أعلاه ترجمته رقم 57 .

4) ابن حجر : الدرر الكامنة : ج 1 ، ص 460–462 ، وانظر الترجمة أعلاه رقم 118 .

5) ضبطنا قصائده الدينية في ترجمته أعلاه رقم 192، وكذلك نصصنا على أرقام ديوانه. قال عن نفسه :

وصرت أنادى يا خديم محمد * وطوبى لمن أضحى له يتخدم

6) انظر أسفله في الفصل السابع الخاص بالغزل : المقدمات الغزلية .

7) كما في مقدمة « تحفة اللبيب وسلوة الكئيب » 43 بيتا من 255 بيتا، وهي للخلوف .

فيها الى تقدمه في السن وأن الشيب قد غزا شبابه المخلوق مؤذنا بقرب لقائه لربه : من الطويل

واسفار صبح الشيب عن ليل لمتي * دليـل علـى ظـل مـن العمـر زائـل

... ولم يبـق لي الا التفاني بادمع * على طول تفريطي هوام هوامل [8]

ويضمن الشاعر مقدمته نفثات حارة مشوبة بالتحسر على حياة ماضية ارتكب فيها الذنوب والمعاصي، سريعا ما تنسكب في لهجة الجزع من وشك حلول اليوم الآخر وتنسجم في أصوات مهموسة تكثر فيها ألوان الجناس وسائر المحسنات البلاغية، وتصل هذه المقدمة الذاتية الوجدانية عامة الى حد البوح والاعتراف في نفس بكائي معلول بسبب الخوف من عقاب الله. قال الخلوف في مطلع « قرع باب الفرج بمدح طه الرفيع الدرج » : من الخفيف

ضل سعيي وما اهتديت سبيـلا * كيـف أهـدى وما اتبعت دليـلا

ساء فعلي واسـود أبيض قلبـي * ما احتيـالي وقد عصيت الجليلا

وأطعـت الهـوى وغيـر جميـل * أن أطيع الهوى وأعصي الجليـلا

وحملت الذنـوب حمـلا ثقيـلا * كيـف أنجو وقد حملـت ثقيـلا

وتجيش عاطفة الشاعر فتتلاحق المقاطع في سيل فياض معبرة عن التلهف الى رحمة الله وغفرانه :

فدعوني أبكي وأنـدب شجوى * ان شجـوى أثـار دائـي دخيـلا

وأسيل الدمـوع شيئا فشيئـا * وأجـوب الـربـوع ميـلا فميـلا

ويقول ابن السماط [9] : من الطويل

---

8) التجاني : الرحلة : ص 387 .

9) المصدر نفسه : ص 383-384 .

لئن قصرت خطوي اليكم خطيئتي * وذبتني الأوزار عن بابكم ذبـــا

فمن شيمة العبد الفرار لربه * ومن شيم السادات أن يغفروا الذنبا

وقوام المدحية النبوية التغني بجميع مراحل سيرة الرسول ابتداء من مولده وعلامات النبوة الى الرضاع والنشأة ثم الاسراء والمعراج والتنزيل وسائر المعجزات، وسرد خصال محمد صلى الله عليه وسلم وسماته الخلقية. ومن هذه المدحيات ما تتغنى بالشهر الذي ولد به المصطفى، فيقارنه الشاعر بغيره من الشهور، مفضلا اياه، منوها به، قال ابن السماط : من الكامل

أعلمت أنك يا ربيع الأول * تاج على هام الزمان مكلل

مستعذب الالمام مرتقب اللقا * كل الفضائل حين تقبل تقبل

فطل الشهور عُلاً وفاخرها فإن * شمخت بأطولها فأنت الأطول [10]

وتتخلل مدحيات الخلوف نفحات تصوفية واضحة ولا يكتفي بتعداد محاسن النبي ومزاياه بل يفضله على جميع المخلوقات : من الطويل

هو البدر لا والله بل هو أكمل * من البدر في حال التمام وأوسم

هو الشمس لا والله بل هو أنور * من الشمس في أفق المعالي وأعظم

هو الغيث لا والله بل هو أجود * من الغيث في بذل النوال وأكرم

هو الليث لا والله بل هو أشجع * من الليث في وقت الجلاد وأقدم

هو الغصن لا والله بل هو أميس * من الغصن عند الانثناء وأقوم

هو الزهر لا والله بل هو أطيب * من الزهر حال الانتشاق وأنسم

ويذكر الصحابة فيمجدهم وينوه بأياديهم على الاسلام بدءا بالخلفاء الراشدين. وكثيرا ما تتضمن مدائحه أبياتا تحث على التقشف في الحياة ونفض اليد منها والتفكير الدائم في الموت والتذكير بهول القبر والنصيحة بالاحسان والتحلي

---

10) المصدر نفسه : ص 390-391 .

بطيب الأخلاق. ونقرأ في بعضها تهويلا لشرور الحياة فيصور الشاعر الدنيا خادعة ماكرة، تتقلب بالانسان، لم يصف موردها يوما لوارد، موبوءة، لذلك يعلن الخلوف عن طلاقها بالثلاث، ويسميها « ضرة الدين » ويصرخ في وجهها :

بيني ثلاثا فقد حرمتك أبدا * ومن يحل الزنى من بعد ما حرما

وذلك في قصيدته « قطر الغمام في مدح خير الأنام عليه من الله أزكى صلاة وأتم سلام » وهي في 423 بيتا.

ويختم الخلوف غالبا مدحياته النبوية بالدعاء للاسلام والمسلمين ولخليفة تونس وولي عهده ثم لا ينسى نفسه ووالده وأهله ومشائخه فيذكرهم بالدعاء لهم كل مرة. وأحيانا يختتم بمثل هذه اللهجة الباكية الشاكية : من البسيط

أنا الذليل الذي قد قل ناصره * أنا العليل الذي أعيى الدوا داه

أنا الضليل الذي عزت مطالبه * أنا الجهول الذي قلت مطاياه

أنا الشريد الذي أقصاه صاحبه * أنا الفريد الذي أوهمه أعداه

أنا الفقير الذي خانته ثروته * أنا الحقير الذي عمته بلواه (11)

وقد نشأت المدحية النبوية في العهد الحفصي بتأثير قوى من الشقراطسية وعلى منوالها(12)، فقد لاقت هذه القصيدة التي ألفها عبد الله الشقراطسي (ت 466) (13) ووسمت باسمه وهي من 130 بيتا، رواجا كبيرا، واعتنى بها الشعراء تخميسا والادباء شرحا، وممن خمسها ابن شباط (14)،

---

11) من قصائد « استشفاء الكئيب بمناجاة الحبيب » من 179 بيتا، يبدو أنها نظمت بالمدينة على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

12) انظر عن الشقراطسية : النوري التوزري : « مكانة وأثر الشقراطسية في العصور الزاهرة » : فصل صدر بمجلة « الثريا »، السنة 2، العدد 5، ماي 1945.

13) انظر ملاحظة عدد 10 من الترجمة رقم 31.

14) انظر أعلاه الترجمة رقم 47. وعنوان تخميسه : « سمط الهدي في الفخر المحمدي » وقام بشرحه ثلاثة شروح.

وابن عربية [15] وابن حبيش خمسها ثلاث مرات سماها « القرب الثلاث » [16] وقد استحسن النقاد جميع هذه التخاميس خاصة تخميس ابن حبيش الذي أوله : من البسيط

عزل الشباب قضى أن المشيب ولي * فما التغزل من قولي ومن عملي

حمد الاله ومدح المصطفى أملي * «الحمد لله منا باعث الرسل

هدى بأحمد منا أحمد السبل »

فلاحظ العبدري حسن الاشارة في ذكر الولاية والعزل في هذا المصطلح وتضمين حمد الله ومدح الرسول ومجيء الأقسام في غاية التناسب كأنها من نظم رجل واحد [17]. وتتميز هذه التخاميس باستعمال كثير من المحسنات اللفظية والمعنوية كالكناية والجناس والطباق ورد العجز على الصدر والتضمين مع براعة المطلع وسهولة اللفظ ووضوح المعنى وجمال السبك .

وعلى غرار تخميس الشقراطسية، ولع بعض الشعراء خلال العهد الحفصي بتخميس قصائد دينية شهيرة في مدح النبي، فقد خمس ابن شباط « المنفرجة » أو « أم الفرج » لأبي الفضل يوسف بن النحوى (ت 513) [18] ، وعنوان تخميسه : « عجالة الروية في تسميط القصيدة النحوية » [19] ، وخمس أبو بكر بن حبيش قصيدة « معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب » في معجزات الرسول ونسبه ومناقب أصحابه، لأبي عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي

15) انظر ترجمته أعلاه رقم 31 ، وكان هذا التخميس سببا لدخوله للبلاط الحفصي وتسنمه الدرجة الأولى بين شعراء أبي زكرياء الحفصي، وروى لنا التجاني كيف دعا هذا السلطان الشاعر بفضل هذا التخميس. انظر الرحلة : ص 376-377 .

16) انظر ترجمته أعلاه رقم 45 .

17) العبدري : الرحلة : ص 51 .

18) انظر عنه أطروحة الدكتور الشاذلي بويحيى (بالفرنسية) : ص 197-199 .

19) العبدري : الرحلة : ص 52 .

(ت 540) [20] كما خمس أيضا قصائد حسان بن ثابت في رثاء النبي ومعارضات ابن أبي الخصال لها [21] .

وتبارى عدد من الشعراء في تخميس بيتين لأبي طاهر بن سرور القرشي في المدح النبوي : من الكامل

شرف مديحك بالنبي وصلـــه * تكســـو المديـــح بالممـــدوح

فالعين زان سوادها انسانهـا * والجسم شرفـه حلول الـــروح

وجمعت هذه التخاميس في تصنيف قام به الرصافي المعروف بالمعليف، وممن خمسهما أبو عبد الله جمعة بن الميل [22] .

ولئن ماثلث المدائح النبوية في أوائل العهد الحفصي الشقراطيسية فانها قد تطورت تطورا كبيرا في آخر العهد الحفصي على يدي أحمد الخلوف، فقد جدد فيها روحا وأسلوبا وجل قصائده بين 200 بيت و 300 بيت، توخى فيها طريقة الترنم باعادة بعض الحروف والكلمات والتعابير في كثير من الابيات المتتابعة مرات عديدة، والاكثار من استعمال الاساليب الانشائية كالالتفات والنداء والتساؤل وادراج شتى ضروب المحسنات كالترصيع ورد الأعجاز على الصدور والترادف وجمع المؤتلف والمختلف في شعره وخاصة اعتماد لهجة التفخيم والتعظيم والتضخيم مثل هذه الأبيات : من البسيط

ياأمة المصطفى طه أبشروا فلكم * من مشرب الاصطفا ريٌ وتنهيـــل

وليكفكم شرفا في الدهر أن لكـم * بأشرف المرسلين العز والطـــول

طولوا وصولوا فأنتم أمة رجحت * عن غيرها شرفا فليهنكم طـول

---

20) المقري : أزهار الرياض : ج 4 ، ص 175-249 .

21) المصدر نفسه : ج 5 ، ص 249-299 .

22) ابن الطواح : سبك المقال : ص 127-128.

الفصـل الثـالـث

الاخـوانيـات

ترد القصائد الاخوانية التي لدينا مضمنة عادة في الرسائل النثرية [1]، تتصدرها أو تتعقبها أو تتخللها وقد نظمها صاحبها ليحلي بها نثره، وليبرز للمراسل اليه تفننه في الشعر والنثر ويعبر عن اكرامه له ويزيد توددا اليه وقربا. وقد تبين لنا من خلال بعض المصادر أن بعض الادباء كانوا محور حركة شعرية نشيطة، كانوا يدبجون الرسائل شعرا ونثرا الى أصدقائهم وأقربائهم وكانت تفد اليهم الرسائل الشعرية والنثرية بغزارة، من هؤلاء نذكر الأديبين أحمد الغساني وعبد الله التجاني.

ارتبط أحمد الغساني بعلاقات وطيدة حميمة مع زمرة من الأدباء كان يمازحهم ويقارضهم شعرا في مواضيع أدبية مختلفة، منهم أبو الحسن علي بن سعيد وابن همشك وأحمد اللياني وأبو القاسم بن يامن وابن أبي الحسين، ولعل قصيدته لأبي الحسن بن سعيد أحسن نموذج لهذا الغرض، فهو يدعوه فيها الى المطارحة الأدبية ويستفسره عن سبب تخلفه عن نادي الخميس الذي كان أبو العباس أحمد الغساني يجتمع فيه بخلان الوفاء بجنانه بالوطن القبلي [2] ويبدي في قصيدته حيرته وشوقه الى خليله : من الكامل

إيه أبا الحسن استمع شدوى كما * يصغي الحمام الى الحمام ترنما

وأجل جفونك في سطور لم تكن * لولا تصعد زفرتي أن تفهما

واذا لمحت فريدة منها فلا * تعجب لناظمها فمنك تعلما

بالله طارحني الحديث فانني * أهوى حديثك مفصحا ومجمجما

1) انظر أسفله الباب الثاني، عنصر الرسائل الاخوانية، ص 706-710 .

2) انظر أسفله الفصل التاسع، ص 667 .

واستبق بالنجوى الخفية بعض ما * أبقيت لي اذ لم تدع الا ذما
أتراك من نادى الخميس سلوت أم * ما زلت مثلي فيه صبا مغرما ؟
تتجاذب الأشواق قلبي كلما * أبصرت فيه مكانك المتوهما [3]

فأجابه ابن سعيد مؤكدا صداقته له ووفاءه لنادى الخميس متلطفا، مطريا رسالته، متحببا اليه :

أطلعت في ليل التشوق أنجما * لما بعثت مسائلا ومسلما
لولا كتابك ظلت فيه حائرا * حيث اتجهت رأيت جنحا مظلما
وافى وأفقي حالك فأناره * وأوام شوقي مؤلم فشفى الظما
أودعته قلبي ففاح نسيمه * فكأنما ند بجمر ضرما
فرددته في ناظري فكأنما * زهر الرياض سقيته ماء السما
فرددته في مسمعي فكأنما * طير أمال الغصن حين ترنما
ما طرسه الا كجمر ساطع * رقم العذار بصفحتيه أرقما
ايه أبا العباس بعدك لم أزل * مهما تدر مشمولة متجهما [4]

ونلاحظ أن القصائد المتبادلة بين الاخوان تأتي دوما في صيغة الخطاب بضمير المفرد أو الجمع ، وتتضمن اسم المخاطب، والرد في نفس البحر والروي والقافية، محملة جميعها بعبارات الثناء والشكر وتجديد العهود واثبات مشاعر الود والمحبة، ويختار المراسلان ألفاظهما وتراكيبهما يتأنقان فيها ويتفننان، ويبالغان في اظهار الأشواق والاستفسار عن الحال وتقديم الأماني أو التهاني اذا اقتضتها المناسبة. وقد أورد لنا التجاني في رحلته نماذج عديدة من الأشعار الاخوانية في مخاطبة الأقارب والأصدقاء وخلان الوفاء، كان تبادلها معهم، وكان تقييد الرحلة

3) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 19 .
4) المصدر نفسه : ص 5 ، وانظر نماذج أخرى في هذا المصدر : ص 13-14 ، 17-18 .

مناسبة لتسجيل عدة نصوص منها واعطائنا صورة حية من هذه المكاتبات الغزيرة الفائضة بالعواطف الاخوانية، عواطف الود والأخوة والصداقة، وهي تنم على رقة مشاعر، وتأثر جميل بالكلام الطيب في محيط حضاري ازدهرت فيه الآداب واقتطفت فيه شتى الفنون .

ونذكر من المكاتبات الشعرية التي تبادلها مع عدد من أقاربه قصيدة وجه بها اليه أخوه أبو العباس أحمد من 79 بيتا يتشوق فيها اليه وهو مع السلطان أبي يحيى زكرياء بن اللحياني في غمراسن وختمها بمدح السلطان [5] وقصيدة تصدرت رسالة نثرية وجهها الرحالة الى ابن عمه أبي زكرياء بن أبي الحسن علي التجاني يحييه فيها ويحن اليه [6] ، وقصائد تبادلها مع ابن عمه الآخر أبي الفضل محمد بن علي التجاني خاصة حين ضوعف لهذا الأخير مرتبه «وأعليت عن اخوانه الكتاب رتبته»[7]، وتدل هذه القصائد الاخوانية العائلية على قوة الروابط بين أفراد عائلة التجاني وتتميز بالصدق والخلو من المجاملة، اذ كان أبو الفضل يعلم ابن عمه بما يطرأ عليه ويتفنن في التعبير عن شوقه اليه : من الكامل

برق أنار فهاج عندي النارا * وأثارها مذ ذكر الآثارا

وأسال أمطار الدموع فلم يبن * هل ذاب قلبي عندها أم طارا

فغدا لخفق البرق خافقا * متقلبا ما ان يقر قرارا

وقد تواصلت المكاتبات النثرية والشعرية بين عبد الله التجاني وبعض أصدقائه بتونس طوال الرحلة، منهم أبو ابراهيم بن حسينة، قال التجاني عنه : « وأكثر الفقيه الطيب الفاضل أبو ابراهيم بن حسينة في هذه الأيام من مخاطبتي بالنظم والنثر في أغراض شتى وأنحاء تأتي على حسب ما اتفق وأنا أجيبه عن ذلك كله وأكثر ذلك ضاع مني » [8] ، ولم يتذكر سوى هذه الأبيات قالها ابن حسينة معلنا

---

5) الرحلة : ص 198-203 .

6) المصدر نفسه : ص 190-191.

7) المصدر نفسه : ص 280-284 .

8) المصدر نفسه : ص 171.

عن مواصلته كتابة الشعر للتجاني ليستحثه على مراسلته بالشعر : من الوافر

أعبد الله فقت نوى المعالي * حباك الله أياما سعيدة

ونلت منال أبناء كرام * لهم في المجد آثار حميدة

فانك مستمد من بحور * سواحلها غدت مني بعيدة

فان جاوبت عن نظم بنظم * بعثت بقطعة أيضا جديدة

فلا أبقى لأطلب منك نظما * ولا أبقيت تطلب لي قصيدة (9)

فأجابه عبد الله بتواضع مجاملا مادحا اياه من نفس البحر والروي والقافية خاتما بقوله : من الوافر

وتسألني الجواب وإنّ فكرى * ليقصر عن مجاريك المديدة

فمهد لي على التقصير عذرا * وهون من مطالبك الشديدة

ودم في عزة وبلوغ قصد * وسعد دائم وحلى جديدة (10)

وقد اجتهد ابن حسينة مرة في اتحاف صديقه بقصيدة وفدت عليه منه تصرف فيها فغير من قوافيها وردها اليه حاملة اسمه (11) .

ومن القصائد الاخوانية قصيدة في عشرة أبيات لأبي بكر بن فتح الغماري النفزاوي يخاطب فيها عبد الله التجاني مجاملا اياه معترفا بفضله، أجابه عنها التجاني بخمسة عشر بيتا من نفس البحر والروى مادحا نظمه، بائحا بوده له وبشوقه لتونس وختمها بالدعاء له (12) ، ثم راجعه الغماري بقصيدة أخرى في نفس الوزن والقافية في أربعة عشر بيتا يبثه فيها فرحته بصداقته ويؤكد له الولاء والوفاء،

---

9) المصدر نفسه : ص 171-172.

10) المصدر نفسه : ص 172.

11) المصدر نفسه : ص 233-234 .

12) المصدر نفسه : ص 148-149، وقصيدة الغمارى : ص 147-148 .

وأردفها بأرجوزة في تسعة وعشرين بيتا فيها مداعبة وتوريات عديدة عن رحلة مخاطبه عبر البلاد التونسية [13]. الا أن مبعث علاقة الغماري بالتجاني طمع الاول في أن يتوسط الرحالة لدى السلطان ابن اللحياني لينال حظوة عنده غير أن آماله لم تتحقق فبات يشكو للتجاني فقره المدقع وحيرة نفسه وخوفه من شماتة الأعداء في قصيدة طويلة أجاب عنها الرحالة بأخرى في نفس البحر والروى والقافية يكاشفه هموم نفسه ويبثه عدم رضاه برتبته : من الوافر

أرى الأيـام تمنعنـي مـرادي * وتلقـي بي لقصـد مستحيـل

وأطلب للعلـى فيهـا وصـولا * فيصعـب للعلـى فيها وصولـي

ويمضي الأمر غيرى وهو دونـي * وأمرى لابس ثوب الخمـول

وان تك قـد أنـالتنـي قليـلا * فمثلـي ليس يقنـع بـالقليـل

ومـا طلبـي لها الا لعلـي * أسود عداي أو أرضي خليلي (14)

وقد تلقى التجاني رسالة جماعية كتبها له من تونس أصدقاؤه ممن « دعاه كرم عهده الى أن يجدد بتجديد المخاطبة ثابت وده، وأرادوا أن يودعوا نظمهم كله صحيفة واحدة » [15] ، واتصلوا بوالد التجاني ورغبوا منه أن يصدرها بشيء من شعره فكتب، وذلك خلال شهر جمادي الثانية 708. وقد أجابهم صاحب الرحلة بأوفر مما كتبوا، وكلهم ضمنوا أشعارهم معاني السلام والاشارة الى ذكريات الأنس والتنويه بصداقة التجاني والتعبير عن الوداد له والشجى لبعده والتلهف للقائه وضمن صديقهم رده اليهم معاني البقاء على العهد والتنويه بهم والحنين الى رؤيتهم من جديد في تونس، فأجابهم جميعا بثلاثة وستين بيتا لم تضعف شاعريته فيها ولم يردد نفس المعنى لأحدهم بنفس الصياغة، وهذا جدول ما تلقاه من أبيات وما أرسله اليهم ملتزما لكل منهم البحر المخاطب به والروي والقافية :

---

13) المصدر نفسه : ص 151-152.

14) المصدر نفسه : ص 176، وقصيدة الغمارى : ص 174-175.

15) المصدر نفسه : ص 294-303 .

اسم الشاعر	عدد الأبيات الموجهة الى التجاني	البحر	عدد الأبيات الموجهة اليهم من التجاني
والده محمد التجاني	3	الطويل	لم يرد عليه
محمد بن يعيش	5	الوافر	10
محمد الهواري	20	الكامل	19
محمد البلوي بن أبي سالم	3	الطويل	10
أحمد الرصافي	2	الطويل	6
أبو القاسم بن الملجوم	8	البسيط	10
محمد بن رأس الحجلة	5	الطويل	5
محمد الجزري	3	الخفيف	3

ومن هذا النوع نذكر قصيدة في مخاطبة شاعرين اثنين وجه بها الشاعر أبو زيد بن نزار الى عبد الله التجاني وأبي ابراهيم بن حسينة [16] ، وقصيدة أخرى مرسلة الى صاحب الرحلة كتبها أبو عبد الله محمد الهواري وذيلها أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البلوي « تتضمن تجديد الوداد وتأكيد الاعتقاد » [17] فأرسل التجاني اليهما قصيدة اخوانية لطيفة جمع فيها بينهما في المخاطبة [18] .

16) المصدر نفسه : ص 189-190 .
17) المصدر نفسه : ص 228 .
18) المصدر نفسه : ص 228-230 .

الفصل الرابع

الفخر

والافتخار هو المدح نفسه الا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح به قبح في الافتخار.

ابن رشيق : « العمدة » : ص 355 .

يمكن أن نقسم الشعراء الذين نظموا قصائد فخرية الى صنفين : خلفاء بني حفص وأمراؤهم من الشعراء ثم غيرهم من الأدباء والعلماء الذين افتخروا في شعرهم بنسبتهم الى الآباء ومرتبتهم العلمية ونبوغهم الشعرى. وقد تميزت قصائد كل صنف في غرض الفخر بميزات خاصة :

1 - فخر الخلفاء والأمراء :

افتخر خلفاء بني حفص وأمراؤهم من الشعراء بشجاعتهم في الحروب واقدامهم في الغارات وتبجحوا بكرم المحتد وعراقة النجار ومجد الآباء وتباهوا بحسن سياستهم للرعية وقيامهم بشؤونها قياما وفر لهم الرفه والأمن والخير. قال أبو زكرياء الأول الحفصي : من الوافر

وما للناس منا غير رعي * يفيدهم رفاها وانتفاعا
فيمنعهم وما شعبوا مضاما * ويوسعهم وما سغبوا انتجاعا
بنى لي المجد آباء كرام * وورثنا مجدهم باعا فباعا
وهذبني الإباء ففات طرفي [1] * وكل بَعُدُ يجري ما استطاعا[2]

1) الفرس الأصيل من الخيل .
2) ابن الأبار : الحلة السيراء : ص 3 .

وقد حفظ لنا ابن الأبار في أول « الحلة السيراء » نصوصا فخرية عديدة ومختلفة لأبي زكرياء. ففي قصيدة يخاطب فيها نفسه يلهبها حماسا ويدعوها الى المعالي يقول بنخوة ملوكية ونفس ملحمي مليء بالمحسنات البلاغية : من الطويل

أجب داعييها فالنجيب يجيب * وشب لظاها فالنخيب [3] يخيب

وشم عزمة لا يغمز العجز متنها * فذو العزم في اليوم العصيب يصيب

ولا تبتغ العلياء الا بأبيض * لغربيه في هام الكماة غروب [4]

وفي قصيدة أخرى له، يمزج غرض الغزل بغرض الفخر، فتطالعنا منها نفحة تهب علينا عادة من غزليات عمر بن أبي ربيعة. يفتخر أبو زكرياء ببسالته في الحروب وانتصاراته فيها خلال حوار دار بينه وبين حسناء قد هزمته بحبها : من الطويل

وحوراء تستعلي بنهدين أشرعا * ولا غرو أن يدعو هواها فأتبعه

تقول وقد رقت لما بي : أجازع * وأنت جريءٌ والأسنة مشرعة

فقلت لها : جفناك عزا تجلدى * ونهداك هداً نفس هيمان موجعه

وما زلت ألقى القرن يعسل رمحه * فمن لي بمن يلقى الفؤاد بأربعه [5]

ويضيف السلطان أبو يحيى أبو بكر الى معاني الافتخار التقليدي معنى الاعتزاز بحياة لاهية يحياها في المتعة واقتناص اللذات فيتباهى بذكر حبيبه ومجالس الأنس التي يعقدها الى الصباح : من البسيط

انظر الينا ترانا ما بنا دهش * وكيف يطرق أسد الغابة الدهش ؟

لا تعرف الحادث المرهوب أنفسنا * فاننا بارتكاب الموت ننتعش

---

3) الجبان .

4) من عشرين بيتا في « الحلة السيراء » : ص 3-5 ، فيها كثير من التحريف والسقوط، ورد منها 14 بيتا في « مجمل تاريخ الأدب التونسي » لحسن حسني عبد الوهاب : ص 188-189 .

5) الحلة السيراء : ص 6 .

نسقي أحبتنا من صرف خمرتنا * في طول ليلتنا حتى بدا الغبش

من كف ظبي سقاني من مدامته * للري من عطش فازداد بي العطش

كأن وجنتها من حمرة شفق * وشعرها غسق بالجسم مفترش [6]

ويعلق ابن فضل الله العمري على هذه الابيات بقوله : « فانظر ما نطق به أول هذه الأبيات من اقدامه ثم ما جذبته اليه دواعي النفس من ذكر حبيبه ومدامه » [7].

وتختلط معاني الفخر بمعاني الغزل في قصائد هذا السلطان ، ففي قصيدة أخرى له تبلغ 39 بيتا [8] يحتل غرض الغزل 18 بيتا ويحتل الفخر 21 بيتا، فتكاد تكون القسمة بين الغرضين مناصفة الا أن الفخر يتخلل القسم الأول، ويرتكز على مجموعة من الصفات الأخلاقية الحميدة كالصبر عند النائبات والثبات في الشدائد والسعي نحو المعالي بالاضافة الى معان عهدناها في المدائح السلطانية مثل الانتساب الى أبي حفص عمر الهنتاتي وأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص والاتصاف بالبأس والشجاعة والكرم ووفرة الأدب والخطابة وتدبيج الشعر. ويمكن أن نعد هذه القصائد الفخرية مثل المدحيات السلطانية من الأدب الدعائي السياسي لخلفاء بني حفص خاصة وأن الكثير منهم قد ولوا الحكم في ظروف عسيرة جدا، اكتنفت حياتهم الثورات والفتن والمحن. يقول أبو يحيى أبو بكر في هذه القصيدة بلهجة يبالغ فيها في الافتخار بصفات ومزايا لا تكون عادة الا للأبطال الأسطوريين: من الطويل

ملكت الدنى شرقا وغربا بأسرها * ولكنني أمسيت فيها متيما

يغالبني ظبي وأغلب كل من * تملك فيها وارتدى وتعمما

كتمت هواها عن فؤادي ومهجتي * وعن سهد جفني ما استطعت تكتما

---

6) العمري : وصف افريقية : ص 15 .

7) المصدر نفسه. ويقول العمري : « والمشهور على ألسنة التونسيين أن سلطانهم كثير الاحتجاب بخلاف سلفه، قليل النظر بالاعتناء في مصالح دولته ورعاياه، مقتصر على ذاته » (ص 14-15) .

8) ابن الأحمر : نثير الجمان : ص 98-102 .

ولكن لـي نفسـا تـذوب صبابـة * وتصبـر عند الحادثات تكـرمـا
وتألـم من طـول الصدود ولا تـرى * لدى الحرب مـن مـس الحديد تـألمـا
وتهجر في نيل المعالي منـامهـا * وتتخـذ المكـروه للفخـر سلمـا
فتدرك مـا تبغي مـن الحـظ سـالمـا * ولو كان خلف البحر والبحر قد طما
... فان صعد الأملاك بالارث منبرا * فمنبـرنـا أعلـى وأكـرم منتمـى
وآبـاونا في الملك والبأس والنـدى * تـداولها الوراخ عـربـا وأعـجمـا
ولا فخـر والأعـداء تشهـد أننـي * أجئ وغـاهـا مسفـرا متجهمـا
وأقـدم والأبطـال يبصـر وجههـا * هنـاك عبوسـا منكـرا متغيمـا

وينهي أبو يحيى أبو بكر قصيدته متباهيا بنفسه ناسبا اليه كل المكارم والمفاخر، متحديا أعداءه، متغنيا بالطارف والتالد .

وقد سار ابنه أمير المؤمنين أبو العباس أحمد على خطوه، مقتفيا أثره، فنجد في فائيته المحتوية على 33 بيتا [9] نفس النزعة الى الغلو والاغراق، والغرف من المعاني التي كان والده يردها، مع البلاغة في التعبير ونصاعة النظم وجودة تلاحق الصور والأفكار. ويضيف الى المعاني الفخرية التي افتخر بها والده معاني أخرى مثل القيام بحماية الشريعة والتواضع والعفو والرأفة بالناس وانصافهم : من البسيط

حمـى الشريعـة منا سعـي مجتهـد * فليس بالديـن لا حيـف ولا جنـف
فينـا التـواضع والإغضـاء شيمتنـا * والعفو والصفح من أبنائنا عرفـوا
ورأفـة فـي جنـاب اللـه صـالحـة * فـلا تـرانا لغير الحـق ننتصـف
تواضعـا عظمت في الناس هيبتـه * ان التـواضع في أنف العلى أنف
نهـوى الحروف التي لمجموعها نعـم * وليـس فـي لفظنـا لام ولا ألـف
... سيوفنـا من تمادي سلهـا نحلت * حتى كأن بها مـن عشقهـا دنـف

9) المصدر نفسه : ص 103-105 .

ولا شك أن للمتنبي تأثيره الملحمي في شعر أبي العباس حين قال :

وما ارتضينا عديد الجيش يكتفنا * بل الجيوش بنا في الحرب تكتنف
جيش تضيق به الغبراء متسع * فالأرض ترجف والأطواد تنتسف

وبعد أن يصف قوة جيشه وعتاده وانتصاراته خاصة في فتح توزر يختم قصيدته بالدعاء لدولته بالاستمرار ولنفسه بطول العمر في دعة ولعقبه بالخلافة !

ونلاحظ أن في فخر الخلفاء والأمراء لهجة غنائية ذاتية أصيلة تشعر بما للدولة الحفصية من عراقة ومجد أثيل وما أضافه بعض السلاطين لها من عز وفخار .

2 - فخر العلماء والأدباء من غير البيت الحفصي :

أما فخر العلماء والادباء والشعراء من غير البيت الحفصي فلنا منه شذرات قليلة جدا بقيت في تضاعيف كتب الطبقات والرحلات. وكأن الافتخار بالنسب الى الأجداد صار سنة أدبية في العهد الحفصي. يقول ابن الدباغ مؤلف «معالم الايمان»، مفتخرا بنسبته الأنصارية وبانتمائه الى أبي أسيد بن الحضير الصحابي الجليل : من الكامل

أشبهت آبائي الكرام فانهم * أبدا بغير الفضل لم يتضلعوا
... وأبو أسيد بن الحضير كفى به * فخرا ومجدا فضله لا يدفع
ذاك الذي نزلت ملائكة السما * لقراءة القرآن منه تسمع
وأضاءت المنساة [10] في غسق الدجى * من كفه لما ادلهم المهيع
نسب كأن الصبح منه تنفست * أنواره والشمس عنه تشعشع
من مبلغ الأنصار عني أنني * أحمي الحمى وأذب عنه وأدفع

---

10) العصا .

وكذلك افتخر محمد بن أبي تميم الحامي بنسبه وأنه من نسل جعفر بن فلاح، ويعرفنا به في هذه الأبيات : من الخفيف

أنا من نسل جعفر بن فلاح * واهب المال ناهب الأرواح
فاتح الغرب والشآم ومفني * ملك آل الطريد والسفاح
من علا قدره علو الدراري * وسرى ذكره مسير الرياح
سل قريض ابن هاني، فهو ينبيك بما بث فيه من أمداح [11]

الا أننا نجد من الشعراء من يكتفي بالفخر بما اكتسبه من مجد شخصي فيتباهى بنبوغه الشعرى وبراعته في النظم. يقول أحمد الخلوف من موشح وسم فيه نفسه بشاعر الدنيا وامام أهل البديع وشيخ الادباء : من الكامل

بالخلوف النظم في الأفق الرفيع * وبه قد صار في أعلى الرتب
شاعر الدنيا، امام أهل البديع * قيم النظام، شيخ أهل الأدب

ونشير الى زجل سمى نفسه فيه بشيخ أهل الزمان وافتخر فيه بشعره وبتفوقه على غيره من الشعراء في مصر والشام [12] .

الا أننا لم نعثر على نصوص فخرية أخرى لأدباء آخرين من العهد الحفصي، ولعل البحث في المخطوطات أو في غضون مصادر لم نتعرف عليها يوصلنا الى الكشف عن نصوص أخرى في هذا الغرض وغيره .

11) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 383-384 .
12) جاء في هذا الزجل :

نظام ابن الخلوف سام * بآفاق المعاني * والأقوال
وكم حاول وكم سام * سواه نيل الأماني * فما نال
سوا في مصر أو الشام * شيخ أهل الزمان * وقد قال :
حبيبي أسمر مختكر * معو عين سودا تنحر بخنجر
وفيها السحر سطر * حروف نارية تسحر وتسجر

الفصل الخامس

الرثاء

بكى شعراء العهد الحفصي أمواتهم من الأثيرين لديهم من الأقرباء أو الأصدقاء، من الخلفاء والرؤساء أو العلماء والأدباء، الا أن ما بقي لنا ضئيل جدا بالنسبة الى ما بلغنا من أخبار وطرف حول غرض الرثاء في الأدب الحفصي. لقد كان الشاعر التونسي حساسا، يألم لفراق الأحباء من الأهل أو من المشائخ الأجلاء. بلغنا أن أحمد بن الغماز قد رثي بقصائد عصماء جمعت في ديوانين حافلين هما : « تسلية القلب الحزين في مراثي قاضي قضاة المسلمين » و« برائق الوشي وعالي الطراز في مراثي القاضي الأجل أبي العباس بن الغماز »[1]، الا أن هذين الكتابين قد ضاعا، ولم يبق من الشعر الذي احتويا عليه بيت واحد، بل لم يبق من شعر الرثاء في العهد الحفصي الا عدد نادر جدا من القصائد والمقطوعات الشعرية يمكن أن نبوبها الى رثاء الأبناء ثم رثاء الزوجة فرثاء الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان ثم رثاء الأدباء والعلماء والأولياء وأخيرا رثاء المدن .

1 - رثاء الأبناء :

يختص رثاء الأبناء بحرارة العاطفة وصدق الشعور وشدة التألم لفقد فلذة الكبد، فيتجرع الشاعر المصاب من هول المصاب وفداحة الرزيئة. لنا أبيات خمسة من قصيدة لأبي زكرياء يحيى في رثاء ابنه وولي عهده أبي يحيى زكرياء والي بجاية (ت 646) [2] ، وقصيدتان لأحمد الخلوف في رثاء ابنه محمد [3] .

---

1) الوادي آشي : الوادي آشي : البرنامج : ص 39-40 ، محمد مخلوف : شجرة النور الزكية : ص 199 ، وانظر أعلاه ترجمة *ابن الغماز* رقم 66 .

2) محمد النيفر : عنوان الأريب : ج 1 ، ص 64 .

3) القصيدتان من ديوان الخلوف بتحقيق الاستاذ هشام بوقمرة، نسخة مرقونة : ص 189-192. وقد أورد المرحوم حسن حسني عبد الوهاب من *القصيدة الدالية* 16 بيتا من 41 في « مجمل تاريخ الأدب التونسي » : ص 226-227 .

لقد أظلمت الدنيا في عيني أبي زكرياء فبكى فقيده بألم ممض متجدد ويأس مشوب بمشاعر الصبر والرضى بحكم الله وقضائه العادل : من الطويل

ألا جـازع يبكـي لفقـد حبيبـــه * فاني لعمـري قـد أضـر بي الثكـل

...سـأبكي وأرثي حسـرة لفراقهم * بكـاء قريـح لا يمـل ولا يسلـــو

فلهفي ليوم فرق الدهـر بيننـا * ألا فـرج يـرجى فينتظم الشمـل

واني لأرضى بالقضـاء وحكمـــه * وأعلـم ربي أنـه حـاكـم عـــدل

أما مرثيتا أحمد الخلوف في ابنه فنحن نلمس فيهما حيرة الشاعر وجزعه خاصة حينما يعدد خصال الفقيد ويبدو في عينيه الماجد وركن الفخار وحليف السخاء والجوهر المنضد وكوكب الليالي المظلمة. ويصور الشاعر لوعته بأسلوب مؤثر يتردد فيه النحيب وتكثر فيه الزفرات والنداءات وعبارات اللهفة والجزع وألفاظ البكاء والعويل : من البسيط

لهفـي ! وهـل نافعي لهفي على ولـد * اذا لجـأت لصبـر فيـه لـم أجـــد

لهفـي ! وهـل نافعي لهفي على قمـر * رماه بالخسـف نحس الطالع النكد

لهفـي ولهـف بني الأيـام قـاطبـــة * علـى محمـد اذ ولـى ولـم يعـــــد

وكـل عين بمـاء الـدمـع فـي غـــرق * وكـل قلـب بنــار الشــوق متقـــد

وتفيض هاتان المرثيتان بالأحزان والاشجان حتى يبلغ التحرق الى مستوى يحس فيه الشاعر أن حزنه بحجم العالم وأن رزأه رزء لبني آدم كلهم حتى يشاركوه ثكله وعذابه، بل يتحسر الراثي حتى على ميلاد الفقيد ويتمنى أن لو لم يولد ولم يكن أنجبه ولم يحي ليخلف له هذا النكد وهذه اللوعة. ويصل هنا عذاب الشاعر الى أوجه فينشد بتمزق قوي ومرارة شديدة ولهفة لا قرار لها :

بنـي ليتـك لم تخلـق لـوري بلـــى * يا ليتني لـم أسم بالصبـر عن شهـد

وليت بـدرك لـم يطلـع على أفـــق * وليـت شمسك لم تشـرق على بلـــد

ما كان أقصر ساعات بك ارتصدت * فليتني كنت مـوقـوفا علـى الرصـد

ويتكرر هذا المعنى في القصيدة الأخرى : من البسيط

بنـي ليتـك لـم تطلـع على أفــق * وليـت بـدرك لــم تشـرق ديـاجيـه

وتتـضـافر القـافيـة في هذه المرثيـة مع مـخـتلف الصيـغ المستـعملة (التكرار، حروف الندب، أساليب التساؤل والنداء والدعاء ، تعديد المحاسن) لتؤدي هذا النفس الحزين الباكي :

هـلا ترى الغيث قد فاضت ماقيــه * على محمـد اذ غـاضت أياديــــه

نعى محمـد ناعيـه ، فيـا أسفــي * قد قلـب المعنـى نعــي نـاعيـــه

لهفـي ! هـل نافعي لهفي على ولـد * بـات الغمـام على الآفـاق يبكيــه

وتتجلى في هذه المراثي الحساسية المرهفة ازاء وقع البلية في قلب الشاعر حتى يتمنى أن لو كانت الحياة منعدمة من الأساس كيلا تصاب الدنيا بالنكبات والرزايا. الا أن الشاعر المثكول يعزي نفسه في الآخر متصبرا متسليا بأنها حكمة الخالق :

هـي المقادير فاقبل ما حبتك بـه * مـن آجـل نضـر أو عـاجـل نكـد

فللأمـور مـواقيـت مقــــدرة * مـا بين منعكـس منهـا ومطـــرد

ونلاحظ أن هذا الغرض غير غريب عن الأدب التونسي، اذ تجلى فيه خاصة علي الحصري القيرواني (ت 488) بديوانه « اقتراح القريح واجتراح الجريح » في بكاء قرة عينه ابنه عبد الغني [4] .

2 - رثــاء الزوجـــة :

لنا قصيدة في اثني عشر بيتا أوردها ابن الأبار في « الحلة السيراء » [5]

4) انظر : الشاذلي بويحيى : الحياة الأدبية في افريقية في العهد الزيرى (بالفرنسية) : ص 182-183 .

5) ص 9-10 .

يبكي فيها أبو زكرياء الحفصي امرأة فقدها كانت عزيزة على نفسه [6] ويعبر فيها عن حزنه وحرقته. وتبتدئ هذه المرثية بتأملات في الحياة وتقلباتها، والشكوى من مصائبها والتعبير عن جلد الشاعر فيذكر أنها أول مصيبة أبكته وبرحت به وليس من عادته التوجع ولا البكاء. ونستجلي في هذه القصيدة همة هذا الأمير واعتداده بنفسه: من الطويل

وما زالت الايام تغدو على الفتى * فطورا على بشر وطورا على بسر

وان سالمت، والظلم منها سجية * فلا بد يوما أن تغر وأن تغري

مرى الحزن دمعي ان أمر حباله * وكان قديما لا يمر ولا يمري

ونقرأ في هذه القصيدة تعلق الشاعر بزوجته حية وميتة : من الطويل

أأسلو وهذا شخصها حشو مقلتي * وأنسى وما تنفك مني على ذكر

لئن ضم منك اللحد ذاتا زكية * لقد حنيت مني الضلوع على جمر

ويعلن حزنه الأبدي وحنينه اليها مدى حياته لمكانتها الأثيرة لديه :

سأبكيك ما أنت فقيدة بكرها * وحنت الى وكر مطوقة النحر

أطارحها شجوي فيسعد شجوها * فتحسبنا الفي مصاب لدى وكر

3 - رثاء الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان :

لم يكن أبو زكرياء وحده في رثاء ابنه وولي عهده أبي يحيى زكرياء، فقد بكاه معه عدد من الشعراء كان يحميهم وكانت له عليهم أياد. من هذه المراثي، لنا مرثية لأبي المطرف بن عميرة [7] رثاه فيها بتوجع كما يبدو من تعابيرها صرخ فيها بألم وشجى : من الكامل

---

6) تميل الى أنها زوجته .

7) محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة : ص 229 .

أأميرنا وكفى بنا ولهًا عرى * ألبابنا ألا تجيب الداعيا

...ما بال نورك قد خبا ولطالما * كانت أشعته تضئ الناديا

وحين توفي أبو زكرياء نفسه رثي بنظم كثير [8] ، ومن مراثيه التي فازت باعجاب النقاد قصيدة ابن عربية وهي طويلة حسب قول ابن قنفذ، لكنه لم يورد منها سوى خمسة أبيات، جمع فيها الشاعر بين غرضي الرثاء والتهنئة للأمير المتولي مكانه، وذلك في كل بيت، وقد وفق صاحبها في ادراج معاني الفرح تلو معاني الحزن، فنحس بالبسمة تمسح الدمعة والحدث السعيد بتولية المستنصر ينسي الناس ما ألم بهم من ألم [9] .

ولا يمكن أن نستقصي مراثي خلفاء بني حفص وأمرائهم فعبثا يحاول الباحث أن يعثر على نصوص رثائية فيهم في المصادر المتوفرة لدينا الآن، كذلك بالنسبة الى الوزراء والأعيان، غير أنه لنا قصيدة لابن سعيد رثى بها أحد وزراء أبي زكرياء وهو الوزير ابن جامع [10] ، وفيها مبالغة تدل على تكلف وجزع متصنع : من الطويل

ألا فانظروا دمعي فأكثره دم * ولا تذهبوا عني، فاني ذاهب

ويعدد ابن سعيد في مرثيته خصال الفقيد ويعبر عن مدى الخسارة الفادحة والمصيبة العظمى بفقده .

ولأبي بكر بن حبيش أبيات في رثاء كبير علوج المستنصر القائد هلال (ت 664)، كان « معطاء مفضالا » [11] وكان يرعى الأدباء [12] ، الاّ أن هذا الرثاء

---

8) ابن قنفذ : الفارسية : ص 113 ، قال : « ورثي من النظم بما لا يسعه هذا المختصر » .

9) انظر الأبيات أعلاه في الترجمة رقم 31 ، وقد بين ابن رشيق أن من صعب الرثاء جمع تعزية وتهنئة في موضع وضرب أمثلة لذلك منها قصيدة لأبي تمام أنشدها للواثق بعد موت المعتصم. انظر العمدة : ص 365 .

10) محسن حامد العيادي : ابن سعيد الأندلسي : ص 276–277 .

11) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 122–124 .

12) ابن قنفذ : الفارسية : ص 127، وانظر أعلاه الملاحظة رقم 31 ، فصل حال الأدباء .

يغلب عليه التصنع وينعدم فيه الشعور بالصدق، ويقوم على عنصرين : تعديد مزايا الميت وتصوير الانفعال الشخصي بموته : من الطويل

وقالوا : رثيت المجد ؟ قلت لهم : نعم * رثائي له حزني عليه الى الحشر
ولو كنت حيا بعده لرثيته * ولكن روحي سابقته الى القبر

4 - رثاء الأدباء والعلماء والأولياء :

سواء كان هذا الصنف من الرثاء ناجما عن احساس صادق وتأثير بالغ بموت أشخاص كانوا لا يخلون من قيمة علمية أو كان وليدا عن شعور بأداء الواجب ازاء أستاذ أو أديب، فان مرثيات الأدباء والعلماء تبتدئ عامة بتهويل المصيبة والشكوى من الدهر ثم تفضي الى تعداد محاسن الفقيد ومزاياه على الزمان ثم تنتهي بالبكاء والتأسف لموته. ومن مرثيات أدباء العهد الحفصي وعلمائه نذكر مرثية أبي الفضل التجاني لشيخه أبي محمد عبد الحميد بن أبي الدنيا الصدفي الطرابلسي، في ثلاثين بيتا ، وقد مهر الراثي في اختيار البحر والقافية كأنه يشيع جثمان المبكى عليه بالحداء بدأها بهذه اللهجة الخطابية ولا تخلو من صنعة في رصف المعاني رصفا : من الكامل

اطلق دموعك ولتدع امساكها * قد حل خطب ناثرا أسلاكها
وأتى الزمان بنيه بالرزء الذي * أسر النفوس فما تطيق فكاكها [13]

ولأبي الفضل أيضا مرثية مزدوجة في حازم القرطاجني ومحمد بن أبي تميم وقد توفيا بتونس سنة 684 وبينهما نحو الشهر قال : من الوافر

ثوى ابن أبي تميم، ثم حازم * فحزني بعد دفنهما ملازم
هما الشيخان، ان ذكرت شيوخ * تشد إلى لقائهم الحيازم

---

13) محمد الحبيب بلخوجة : أبو الفضل التجاني : ص 269-270 ، ولنا مرثية أخرى في هذا الأديب العالم لأبي محمد بن مبارك من 12 بيتا. انظر : ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 401-402.

همـا العلمـان ان ذكــرت علـــوم * تعــرفهـــا يعـــد مـــن اللـــوازم

حذفت الصبــر بعدهمــا، ولــم لا * وخطبهما لفعـل الصبـر جـــازم

ويمكن أن نضيف الى هذا الفصل النصوص الرثائية التي قيلت في الأولياء، منها مراثي الولي أحمد بن عروس [14] ومرثية بدون نسبة الى صاحبها رثي بها الولي منصور بن جردان (ت 904) ، ولا نعرف هل قيلت في عهده اثر مماته أم في العصور الموالية [15]. وتتصف هذه المراثي عامة بالتفكك في المعاني والرداءة في التعبير والانحلال في الصور .

5 – رثـــاء المـــدن :

لنا قصيدة واحدة ترجع الى أواخر العهد الحفصي قيلت في رثاء العاصمة التونسية حين نكبها الاسبان وخربوا معالمها وشردوا أهلها مؤذنين بنهاية العهد الحفصي. وقد استمد الشاعر أبو الفتح محمد بن عبد السلام نفسه في هذه القصيدة من نونية ابن رشيق في رثاء القيروان عند النكبة الهلالية. بكى الشاعر مدينته بنفس والهة معددا محاسنها ومفاخرها واصفا جمالها، نادبا حضارتها المنقرضة. لقد أظلمت الدنيا في عينيه فاذا هو يرى الحياة خالية من أي جمال. ويزيد هلع الشاعر حين يتخيل أن كل محاسن تونس قد انقرضت وربوعها أقفرت وصارت بلقعا توحش، فتتوالى على لسانه عبارات الغم والحرقة والحزن. ويزيد الأسلوب الانشائي المتلون هذه القصيدة تأثيرا في القارئ فيتجاوب مع الشاعر [16]: من الطويل

هي الحضرة العليـا مدينـة تونــس * أنيســـة انســـان رآهـــا بانســـان

...الى أن رمتهـا الحادثات بأسهـم * وسلــت عليهـا سيف بغـي وعـدوان

فما لبثت تلك المحاسـن أن عفـت * وأقفـر ربــع الأنــس مـن بعـد سكـان

... فأعظم برزء خص خير مدينـة * وخيـر أنـاس بيــن عجــم وعـربـان

---

14) انظرها في كتاب الراشدي : ابتسام العروس .

15) الوزير السراج : الحلل السندسية : ج 4 ، ص 1092 .

16) انظر أعلاه الترجمة رقم 198 ، خاصة الملاحظة عدد 3 .

الفصل السادس

الهجاء

لئن كانت الأشعار التي تتناول غرض الهجاء قليلة جدا بين أيدينا بالنسبة الى قصائد المدح والفخر والغزل فان هناك شعراء من العهد الحفصي قد تعاطوا هذا الغرض في شعرهم واشتهروا به وعرفوا بسلاطة ألسنتهم والافحاش في السب والثلب والاقذاع في الهجو والتعرض الى الناس بالاساءة والتشنيع. من هؤلاء أيمن أبو البركات وكان « كثير الهجاء والوقيعة » [1] ، لكنه هاجر الى المدينة المنورة وتاب عن هذا الغرض والتزم المديح النبوي، وابن أبي الحواجب المهدوي وقد نفاه أبو زكرياء الأول إلى المشرق من جراء ايذائه لأعراض الناس[2] وأحمد بن خرباش وكان « هجاء خبيثا » [3] ومحمد بن أبي تميم وكان يتفنن في هذا الغرض ولا يتورع عن الافحاش والسخرية اللاذعة [4] ، وعبد الله بن عبد الرحمان الفرياني وكان « هجاء مقذعا » [5] ، وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الزناتي الحنفي [6] ، وأبو الفتح محمد بن عبد السلام، يذكر مترجموه أنه كان هجاء يقع في حق العلماء والأكابر وكانوا يخافون من لسانه وتتفق له النكات في هجائه، لكن لم يبق لنا شيء من شعره الهجائي [7]. ويمكن أن نميز في هذا الغرض بين هجاء الأشخاص وهجاء المدن :

1 - هجاء الأشخاص :

يقوم هذا الصنف على المبالغة في السب والشتم المزيجين بالسخرية والتهكم

1) ابن حجر : الدرر الكامنة : ج 1 ، ترجمة عدد 1134 ، ص 460-461 .
2) التجاني : الرحلة : ص 370 .
3) الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 6 ، ص 372 .
4) انظر مثالا في الافحاش في المصدر نفسه : ج 2 ، ص 278-279 .
5) التجاني : الرحلة : ص 84 .
6) المصدر نفسه : ص 269 .
7) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : ج 8 ، ص 380-381 .

والاستهزاء، ويصل أحيانا الى الاقذاع والافحاش، ويعتمد خاصة على سلب المهجو من المحاسن والفضائل وخدش كرامته والتعرض الى صيته بالايذاء والنكاية بعديد المعايب الأخلاقية أو الخلقية .

وقد تفنن شاعران في هجو قاض بالمهدية كان ذبح قردا لإذايته، فقال ابن أبي الحواجب مشهرا به : من المنسرح

غرائب الدهر قد كثرن ولا * أغرب من حكم ذابح القرده

أحل ذبح القرود محتسبا * وحرم الفضل بئسما اعتمده

فأجابه أبو عبد الله الزناتي الحنفي متصديا له وللقاضي، باعثا على الضحك منهما : من المنسرح

عاب عليه صنيعه نفر * وما درى الجاهلون ما قصده

يذبح من كان شبه صورته * لكي ترى في الوجود منفرده [8]

ويدخل هجو القاضي في باب هجو أصحاب الرتب الفقهية والموظفين، وقد كان هذا القاضي يمثل السلطة القضائية المركزية، ولا نستبعد أن الشاعرين يلوحان للخليفة بسوء سلوك قاضيه في المهدية كي يعزله. وقد أجاب أبو زكرياء بنفي الشاعر الأول بينما أبقى الثاني يؤثره بالفضل والجراية [9] .

ومن نفس هذا الباب هجاء أبي عبد الله محمد المراكشي الكفيف لابن عرفة وطريقته في التدريس قال : من الوافر

أتيت دروسهم يوما صباحا * فان شئت استمع بيت القصيده

سمعت التنابح [10] والتنادي * كأنهم الكلاب على الطريده

---

8) التجاني : الرحلة : ص 270 .

9) المصدر نفسه : ص 269 .

10) في الأصل المطبوع كلمة مغلوطة. انظر الرصاع : الهداية الكافية : ص 538 .

فثارت ثائرة ابن عرفة وأسرع بالمدافعة عن نفسه ويتفسيق الشاعر بالأدلة الشرعية، مقرعا اياه محاولا ردعه بكل شدة، قال ساخرا متدرعا بالسنة النبوية : من الطويل

وما حال من يهجو أخاه بلفظة * اذا ذكر المروي عند الأئمة

وعلم أصول الفقه والبحث والنظر * سوى حال من قد ساءه قلب نكتة

فباء بفسق، قاله سيد أتى * بصدق وتبيان ووعظ وحكمة

روى مسلم عن شيخه قوله : سباب * لدى الاسلام فسق بحجة

بصغرى وكبرى ينتجان فسوقه * فبالله أعرض عنه وادفع بالتي

وكان دأب ابن عرفة تفسيق معارضيه، وحين اتهم المتصوف المغربي أبا حفص عمر الدكالي الرجراجي بهذه التهمة عندما تخلف عن أداء صلاة الجمعة والجماعة بامامته وكاتب علماء مصر مطالبا اياهم بتفسيقه وقد فر بينهم، أجابه الفقيه المصري الشافعي سراج الدين عمر البلقيني (ت 805) لائما مقرعا من قصيدة : من البسيط

ما كان من شيم الأبرار أن يسموا * بالفسق شيخا على الخيرات قد جبلا

لا لا ولكن اذا ما أبصروا خللا * كسوه من حسن تأويلاتهم حللا [11]

وقد بقيت لابن أبي تميم أبيات عديدة في هجو أشخاص مختلفين منها بيتان لم يربأ نفسه من استعمال كلمات سوقية بذيئة فيهما [12] ، وبيتان خلط فيهما بين الرثاء والهجاء متوكئا على المقابلة والجناس والتخييل الفني : من السريع

مات أبو الطيب واويلتاه * مات الندى والجود والمكرمات

ولو نعوا قاتله قيل قد * مات الخنى والفسق والمكر مات

---

11) ابن القاضي : درة الحجال : ج 2 ، الترجمة عدد 793 .

12) الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 2 ، ص 278-279 .

وقد تورع ابن رشيد من الاستشهاد بشعره الفاحش واكتفى بالاشارة الى هذا الغرض وبإيراد بيتين هجائيين في مغن قبيح الغناء [13] ، توخى فيهما الشاعر أسلوب التفكه والسخرية والعبث [14] .

2 - هجــاء المـــــدن :

أما هجاء المدن فقد روى التجاني منه في رحلته خمسة نصوص : ثلاثة أبيات لأبي عبد الله الزناتي الحنفي هجا بها بلده المهدية [15] ، وخمسة أبيات لأبي عبد الله محمد بن أبي تميم في ذم صفاقس [16] ، وفي هذه الأبيات اشارات تاريخية الى الحملات العدوانية التي كان يقوم بها النصارى على شواطئها وعدوان الأعراب عليها وكان شرهم مستطيرا مما دفع بعض الفقهاء الى الافتاء بمنع التجارة معهم. ولعل ابن أبي تميم نظم هذه الأبيات حين كان واليا على صفاقس لينقله الخليفة الى مدينة أخرى وقد تم له ذلك. وأورد التجاني كذلك بيتين لعبد الله بن عبد الرحمان الفرياني في ذم مراكش وسلق أهلها [17] وأبياتا أنشدها أبو بكر بن مجبر هاجيا قفصة حين تغلب الخليفة المنصور الموحدي على الميورقي بها وهدم سورها وقطع نخيلها ويدخل هذا الشعر في اطار الشعر السياسي الدعائي للخلافة الموحدية [18] .

الا أن أروع قصيدة هجائية لدينا هي قصيدة أبي ابراهيم بن حسينة في ذم سبخة التاكمرت في أقصى الجنوب الغربي التونسي، وهي تتألف من أحد عشر بيتا من الوافر يصف فيها الأهوال والعناء آناء الليل والنهار، ويصور الرياح الهوج المحملة بالرمال والتي تكاد تهلك المسافرين. وتتخلل هذه القصيدة مشاعر الخوف والهلع فاليأس من الحياة ازاء هذه الرياح التي تهب من كل جهة ولها دوي في ظلام

13) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 378 .
14) انظرهما أعلاه في الترجمة رقم 52 .
15) ص 370 .
16) ص 69 .
17) ص 84 .
18) ص 139 .

حالك في حجم الجبال. ونلمس من خلال هذه الأبيات معاناة الشاعر وهو يواجه العواصف الرملية والظلمات الى أن لاح الصبح فتبادل أفراد الركب التهاني بعد أن كادوا يهلكون. وقد برع ابن حسينة في تصوير هذه المخاطر وهذا الليل الذي ألصق سواده بالجبال واختفت فيه النجوم، ووفق في عرض عيوب هذه السبخة في حبكة فنية غطت جميع عناصر تلك الليلة الليلاء التي تهب فيها الرياح الصرصر محملة بالرمال تصفع بها الوجوه وتعمي العيون [19] :

قطعنا التكامرت سرى وسرنا * صبيحة يومنا حتى الزوال
فلا تسأل لما قاسيت فيه * من الأهوال والكرب الثقال
عناء ليس يشبهه عناء * يضيق لديه متسع المقال
وليل لا تسير به نجوم * كأن نيطت الى بعض الجبال
وأرياح تصم الأذن منها * تهب عن اليمين مع الشمال
تصد عن طريق القصد قصدي * وتضرب حر وجهي بالرمال
ولا أسطيع فتح العين فيها * لبعض الأمر الا باحتيال
واجهد في دفاع النوم عني * لخوفي من سقوط أو ضلال
وما زلنا نكابد في سرانا * مهالك لا تقابل بالمحال
الى أن لاحت الغابات ظهرا * بظاهر توزر مثل الخيال
فهنأ بعضنا بعضا سرورا * ونلنا راحة بعد الكلال

ولئن وجدنا شعراء من العهد الحفصي قد مهروا في فن الهجاء فان هناك شعراء آخرين عرفوا بأنهم لم يهجوا قط أمثال أبي بكر بن حبيش [20] الذي ألزم نفسه في آخر حياته أن لا ينظم بيت شعر الا في تقديس الخالق ومدح الرسول،

19) التجاني : الرحلة : ص 156-157 .
20) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 95 .

وحازم القرطاجني الذي لم يسمع عنه أنه هجا أحدا قط [21] ، نبلا في النفس أو تورعا عن الهجو وقد حرمه الاسلام، وجاء في الحديث النبوى الشريف : « من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر ». ويتلاءم الهجو مع بعض النفوس، ويعبر عن مزاج خاص وعن موقف من الحياة والناس وأحيانا يصدر عن نظرة سوداء قاتمة للدنيا عامة تؤول بصاحبها الى التشاؤم والضيق بالحياة .

---

21) ابن الطواح : سبك المقال : ص 133-140، واستثنى ابن الطواح بيتين اثنين في الهجاء أوردهما له .

الفصل السابع

الغـــزل

حق النسـيب أن يكون حلو الألفـاظ رسلهـا، قـريب المعـاني سهلها، غير كز ولا غامض وان يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الايثار، رطب المكسر، شفاف الجوهر، يطرب الحزين ويستخف الرصين .

ابن رشيق : « العمدة » ص 333 .

يحتل الغزل في الشعر الحفصي مكانة مهمة، وتغلب على الأشعار الغزلية الحفصية المعاني الرقيقة والصور الجميلة والأسلوب السلس واللهجة الغنائية الواضحة. وقد ساعد المحيط الحضارى الحفصي الذي كان يسوده التأنق في المعمار، والبذخ في العيش والترف الفكري، والرفه المادي عامة على خلق مجال شعوري خاص يتسم بالرهافة في الحس ورقة في العواطف لدى الشعراء الى حد الذوبان فنجد عندهم نغما غزليا خاصا يجند له الشاعر الحفصي كل طاقته الشعرية ويستخدم كل امكاناته اللغوية والثقافية معتمدا على موهبته وهو يصف الحبيب ويتفنن في وصفه ويدققه حتى نتصور المرأة المعشوقة بكل محاسنها في أجلى مظهرها الحسي، مجسما اياها بجمالها ولون بشرتها وعينيها الأخاذتين ووجهها المتناسق وشعرها الطويل وقامتها الفارعة وخصرها الأهيف. فكيف يظهر المحب في هذه القصائد الغزلية ثم كيف تبدو صورة الحبيبة ؟ وماذا في المقدمات الغزلية للقصائد المدحية ؟ وأخيرا لننظر في بعض المقطوعات الغلمانية .

1 - صـورة المـحـب :

يتغنى الشاعر الحفصي بتأثير جمال المرأة في نفسه فيلتذ بلقائها والاستماع الى نشر حديثها، فيتجلى هذا الشاعر المتغزل فنانا نواقة للجمال،

يفيض في ذكر محاسن المحبوب ومآثره الأخلاقية ويعبر من خلال ذلك عن وجده وعذابه. فابن عربية يظهر بمظهر العاشق المتجنى عليه، الذليل في حبه، الخاضع الطامع في الوصال، الراجي قرب المحبوب ذي التغنج والدلال : من الطويل

تجنى فجئنا خضعا لجماله * عسى عطفة نحظى بها ولعلما
فهز الصبى والدل معطفه كما * تهز الصبا الغصن الرطيب المنعما

ويقارن الشاعر بين روعة خلجات قلبه العاشق وبين بسمة الحبيب فتظهر الصناعة الفنية في هذه المقارنة :

ولما استطار البرق قلت لصاحبي : * أقلبي هفا أم ثغره قد تبسما [1]

ويشكو أبو علي بن معمر من البعد والهجران فيبكي ويأرق من أجل حور في عيني المحبوب : من البسيط

لولا احورار الجفون أودعت سقما * ما أمطرت سحب أجفاني الدموع دما
ولا نثرت عقيق الدمع في طلل * منه أذاع الذي قد كان مكتتما
ما خطط النوم في جفني رسم كرى * الا محا السهد ما قد خط أورسما [2]

ويبدو نافد الصبر، متحرق القلب، متلهفا الى اللقاء :

ما رام قلبي اصطبارا بعد بعدكم * ولا تأخر بي عن وجده قدما

أما محمد الظريف فتمتزج صورة المتشوق الى الحبيب في نفسه بحالة المتصوف الذائب وجدا وحنينا. وتصل به رهافة الحس الى حد ايثار وصل الحبيب على سواه من اللذات الحسية والروحية، ولا عجب في ذلك فان في شخصية محمد الظريف من الظرف والتجاوب مع الجمال والتأثر بمحاسن الحبيب الروحية ما يجعله يبقى على العهد وفيا مخلصا : من البسيط

---

1) محمد النيفر : عنوان الأريب : ج 1 ، ص 76 .
2) المصدر نفسه : ج 1 ، ص 71 .

وصل الحبيب فلا أبغي به بـدلا * ليس التبدل والسلوان من شاني

من لامني في الهوى والحب قلت له : * اليك عني فان الحسن أدماني [3]

ولا تبدو في شعر الظريف صورة الحبيب الحسية ، فلا ثغر ولا لمى ولا عيون ولا ابتسام وانما يعبر الشاعر عن نحوله وسقمه ومعاناته للوجد واحتراق القلب بلظاه:

من سفك دمعي ومن تعبير أجفاني * صفت الهوى حلية من حر نيران

ومن نحولي ومن سقمي وشدة ما * ألقاه من فرط أشواقي وأشجاني [4]

ويشهد الشاعر في تغريد الطير صورة لمناجاة المحبين المتيمين بالحب ، وكأن القصة التي يرويها الظريف على لسان الطائر هي قصة الشاعر نفسه اذ تتضمن رنة واقعية تنم عن فرط احساس ، فالطائر المتغني بكل الألحان المعروفة في المقامات الموسيقية التونسية المعروفة اذ ذاك ، لا يتغنى الا بحب الظريف وشوقه وآلامه وحرمانه من الوصال :

فقلت : ما بك ؟ صف لي ما ابتليت به * ما بال جسمك مكلوم الحشا، فان ؟

هيجت لي لوعة في القلب ساكنة * خفض قليلا فقد هيجت أحزاني

فقال : أبكي لالف كان يألفني * وكنت أهواه في الدنيا ويهواني

قضى الزمان بضعفي حين فارقني * كما تراني فريدا فوق أغصان [5]

ولعل اليأس من الحبيب من العوامل التي دفعت الظريف الى التزهد في الحياة مثل أبي العتاهية، وقد وردت صياغة المعاني الغزلية عنده في صيغة مجددة أساسها الحوار الحي بين طير وشاعر، ولغة الرموز الشعرية، ومزج المعاني الموسيقية بالنغم الشعري، وقوامها عفوية واضحة في التعبير وسلاسة ورقراقة في الأسلوب .

---

3) المصدر نفسه : ج 1 ، ص 103 .

4) المصدر نفسه .

5) المصدر نفسه .

ويحتل ابن القويع بقصيدته الرائية الغزلية التي تتألف من 27 بيتا مكانة مهمة في غرض الغزل. فهي قصيدة ثرية بمعاني الحب والهجران، وما يعانيه المحب في صلاته مع الحبيب، ويصف الشاعر نفسه بأنه امام غرام، فنحس في شعره بنفحات عمرية، يفتخر بحبه ونراه فنانا يتعشق الجمال ويكلف به. والقصيدة أولها [6] : من الطويل

جوى يتلظى في الفؤاد استعاره * ودمع هتون لا يكف انهماره

يحاول هذا برد ذاك بصوبه * وليس بماء العين تطفأ ناره

ولوعا بمن حاز الجمال بأسره * فحاز الفؤاد المستهام اساره

كلفت به بدريّ ما فوق طوقه * ودعصي ما يثني عليه ازاره

غزال له صدرى كناس ومرتع * ومن حب قلبي شيحه وعراره

وتعج هذه القصيدة بكلمات اللظى والنار المضرمة في الحشى والدمع الهتون الذي لا يكف عن الانهمار، فالشاعر قد انفضح حبه حتى اشتهر به :

كتمت الهوى لكن بدمعي وزفرتي * وسقمي تساوى سره وجهاره

[توالت] سجلات علي بأنني * امام غرام ، قل فكيف استتاره ؟

والشاعر يتملى جمال هذا الحبيب ويبقى محروما منه ، متعطشا الى شرب هذه الخمرة الغريبة التي هو سكران بها بالنظر فقط :

زلال ولكن أين مني وروده ؟ * ولدن ولكن أين مني اهتصاره ؟

وسلسال راح صد عني كأسه * وغودر عندي سكره وخماره

أما أحمد الخلوف فقد أعلن في غزلياته أنه قد تقلد الهوى دينا واتخذ المحبة شريعة، يقول في قطعة غزلية [7] : من الكامل

---

6) الصفدي : الوافي : بالوفيات ج 1 ، ص 241 ، ابن القاضي : درة الحجال : ج 2 ، الترجمة .

7) ص241 من ديوان الخلوف، تحقيق الاستاذ هشام بن قمرة، نسخة مرقونة أعارها لنا مشكورا

فالحب ديني والتوله شرعتي * والوجد عهدي والهوى ميثاقي
والشوق طبعي والصبابة شيمتي * والتوق وصفي والجوى أخلاقي

فهو يعيش للحب وبالحب ، نراه مخمورا يفيض بالسعادة والأنس حين يلاقي المحبوب أو يعيش في ذكراه : من الكامل

وأهز من فرط السرور معاطفي * حتى كأني شارب نشوان

وهو يقدس حبيبه ويحميه بالقرآن والسور الكريمة فتتجلى نغمة دينية في هذا الغزل : من البسيط

عوذت حاجبه ذا النون بالنون * وخده وعذاريه بياسين
وعينه وثناياه ومبسمه * من كل عين بطه أو بطاسين [8]

ويستلذ الشاعر عذابه ويحبذ ما يلقاه في حبه من ألم : من البسيط

يا حبذا في الهوى وجد أكابده * من جوهر الثغر أو من عنبر الخال

وهو يسترحم ويستعطف :

رحماك ، رحماك بالصب الكئيب * له بصدك من أهوال وأهوال

ويعلن عن اخلاصه ووفائه رغم جفاء المحبوب :

أخلصت حبي له من بعد معرفتي * بأن حظي منه حظ اقلال
وعاذل رام يسليني فقلت له : * ما عذل مثلك يسلي عنه أمثالي

ولعل الخلوف يشير الى علاقات واقعية ذاتية ويفضي لنا ببعض الأسرار في مثل هذه الأبيات : من الطويل

8) طسم في القرآن .

وليلتنا والعيش غض جنابه * وأفنية الأيام خضر الجوانب

وحي طرقناه وقد غرب الضيا * وما الشوق من قلب المحب بغارب

..فكم ليلة قد بت فيها منعما * برشف رضاب من مراشف كاعب

2 - صورة الحبيبة :

تتجلى لنا الحبيبة في الأشعار الغزلية الحفصية في صورة رائعة من الفن والجمال، تبدو آية فنية قد حازت الحسن بأسره. قال ابن القويع عن حبيبه : من الطويل

تجمع فيه كل حسن مفرق * فصار له قطبا عليه مداره

ويرى أحمد الخلوف حبيبته نهاية في الجمال : من الكامل

فاذا سفرت فبدر تم طالع * واذا نفرت فشادن ضمآن

ويشبهها في بيت واحد بأربعة تشابيه : من البسيط

كالزهر في ترف ، والظبي في غيد * والزهر في شرف والغصن في لين

وقد تقمص الخلوف القوالب الكلاسيكية القديمة، وهضم الأنماط الثقافية العربية التقليدية برقتها وشفافيتها وصورها الحضارية الزاخرة بشتى الدلالات النفسية والاجتماعية والفنية. ويمكن أن نعده قمة ما وصل اليه الشعر العربي في أبهى عصوره وأزهى فتراته، تتجمع في شعره بصورة كثيفة متناسقة بدون أي نشاز المناهج والتراكيب والألفاظ والتشابيه التي تنم على ما بلغت اليه الحضارة العربية في تونس من رهافة وتبلور وايحاء، فتكثر في غزلياته صور السيوف المسلولة من العيون والرمان المنصوب على الصدور والقامات الشبيهة بشجر البان والشعر المنسدل كالليل والوجوه الصبيحة كالصبح بل كالشمس، وهي صور كانت لها جدتها وروعتها ودلالاتها الحضارية في القديم ، وكانت تأخذ بقلب الانسان العربي الذي كان يعيش في حالة جهاد ويحيا وسط طبيعة تكتنفها الخضرة من كل مكان : الأشجار المحملة

بالثمار اليانعة، والأزهار ذات الألوان المختلفة والأشكال البديعة كالورد والنسرين والأقحوان والآس وشقائق النعمان. فالمرأة في قصائد الخلوف، تبدو ثمرة من ثمار الطبيعة اليانعة، تزهو بقامتها وجمالها فيزهو برؤيتها قلب الانسان، واذا بها تمثل الرمز يقدرها الشاعر ويخصها بقصائده الطويلة، واذا بميدان الغزل يمثل الحقل الذي ينفس فيه الشاعر عن همومه ومشاغله. وكم ولع الخلوف برسم الحبيبة بتدقيق وتفصيل فيصف محاسنها الحسية ولا يكاد ينسى منها شيئا. ويتفنن في وصف الثغر الألعس، والمعسول اللمى : من الطويل

وسل ثغرها المعسول عن لعس به * والا عن الصهباء بالمسك ترسب

... حماني اللمى فاعتضت عنه مدامة * وخمر اللمى عندي ألذ وأعذب

ويشبه الثغر في قصيدة أخرى بالكوكب وهو تشبيه موح : من الطويل

وبي ساحر الأجفان، أما قوامه * فلدن ، وأما ثغره فهو كوكب

ويقارن حديث الحبيبة بثمار الحدائق الغناء : من الكامل

في شكلها اندرج الزمان فثغرها * مع شعرها الاصباح والامساء

راضعتها ثدي الوصال وبيننا * يجنى الحديث حديقة غناء

ويصف الشعر الفاحم الطويل والنهود الشبيهة بالرمان :

حرست بأسود شعرها أعطافها * وكذا الأساود تحرس الكثبانا

وجلت معاطفها النهود ولم أكن * شاهدت بانا أثمر الرمانا

ويشبه الخد بالنعمان والسوسن : من الكامل

ويمهجتي منهن خود خدها * قد شاكل النعمان والسوسن

ويلمح الى الخدين والنهدين في هذا البيت : من الكامل

اني لتعجبني معاطفك التي * في بانها التفاح والرمان

وأحيانا لا يكتفي الشاعر بحبيبة واحدة يخصها بحبه بل هو يتنقل في حب النساء ويتوق الى نسوة عديدات : من الكامل

غيد نفرن وقد أمتّ تولهي * فأعدنه حيا كما قد كانا

وهو يصورهن وقد أشهرن عليه حربا فيشبب بهن في نفس ملحمي : من الكامل

هزوا القدود وأرهفوا الأجفانا * أو ما رأيت البان والغزلانا

ولا تظهر الحبيبة في مظهر حسي فقط، بل تظهر أيضا ذات صدود ونفار، قال ابن القويع : من الطويل

دنا ونأى فالدار غير بعيدة * ولكن بعدا صده ونفاره

وتبدو مسوفة للمواعيد، قال الخلوف : من البسيط

من لي به أهيف، ساجي اللحاظ له * ميل، ولكن الى تسويف آمالي

ويتساءل هذا الشاعر عن حبيبه بأسلوب المتجاهل العارف : من الكامل

أمعذبي هل أنت بدر مقمر * أم جؤذر أم ربرب وسنان

أم أنت من حور الجنان فررت أم * ملك كريم أنت أم انسان

3 - المقدمات الغزلية :

يتفنن الشاعر الحفصي عامة في غزله حين يكون مقدمة لمدحه لأنه ينشده أمام ممدوحه من الخلفاء أو الأمراء أو الوجهاء، فيلتمس أن يبقى أثر قصيدته المدحية في نفوس المستمعين اليه، ويدخل قلب الممدوح مستأذنا بالمعاني الغزلية الرقيقة. ويتخذ الشاعر المقدمة الغزلية للمدح لغايات منها :

- اظهار مقدرته الفائقة في فن القريض وشاعريته المرهفة .

- تعبيره عن اعتداده بالنفس وتبجحه في الحب .

- ربط المعاني الغزلية بذات الممدوح فيشتهر خاصة حين يكون التخلص بارعا .

- ادخال جو من الأنس والالتذاذ الفني على قصيدة المدح .

- تقدير المرأة عامة وإشارة الى دورها في شاعرية الشاعر وفي المجتمع وفي البلاط خاصة .

ولا تختلف عامة المقدمات الغزلية للمدائح عن القصائد المفردة للغزل من حيث الأسلوب أو المعاني، فتظهر فيها نفس الصورة للمحب أو الحبيب. الا أن هذا الغزل يحسن أن يتسم بالاحتشام والتأدب إذا كان مقدمة للمديح النبوي وأن يمتنع صاحبه فيه من ذكر محاسن المحبوب الحسية ويبرز حنينه الى البقاع المقدسة بتسمية بعض الأماكن المعهودة ويتفنن أحمد الخلوف في مطالع قصائده الدينية فيستهلها باثارة الشجو والذكرى في اطار من الطبيعة جميل، قبل أن ينتقل الى غرض الرحيل والسؤال عن آثار الحبيب وذكر الشعاب وتسميتها، فيتلاءم غزله مع حنينه الى الحرمين الشريفين : من الطويل

هواي يماني، وحبي معرق * ووجدي نجدي، وشوقي متهم

ويتأدب مع حبيبه فيخاطبه بصيغة الجمع المذكر : من الطويل

سلبتم فؤادي واطرحتم بقيتي * وأسهرتمو قلبي القريح ونمتمو

... وعذبتموني بانتزاع تصبري * وحاشا وكلا أن أقول : ظلمتمو

واهلكتمو جسمي وقلبي وناظري * بصد ، فهلا يا قساة رحمتمو

ثم يتخلص بعد الشكوى من القطيعة والبعاد والاعراض ونفاد الصبر في اشفاق وكل لطف الى التشوق الصريح الى أماكن بالجزيرة العربية متغنيا باسماء نساء تقليدية في قصائد التغزل : من الطويل

وأصبو الى وادى العقيق وانه * لدمع به جمر الصبابة يضرم

وألهو بسعدى والرباب وزينب * وأنتم مرادى في الحقيقة أنتم

..فتاة سرى مسكا فتيقا نسيمها * فأنجد فيها العاشقون وأتهموا

لكن الشاعر لا يتورع عن وصف هذه الفتاة وصفا حسيا ماديا يكاد يكون شاملا لجسمها : الوجنة والثغر والنظرة والجفن والخد والسالف والحاجب والشعر وغيرها من أعضاء المرأة .

4 - الغزل بالغلمان :

لم يخل الادب الحفصي عبر مختلف الفترات الحفصية من مقطوعات غلامية عديدة يتغزل فيها الشعراء بالغلمان. ومن المعلوم أن السنن الأدبية التقليدية تقتضي أن يقول الشاعر في جميع الأغراض حتى ولو كانت وهما ولم تتعلق بالحياة الخاصة ولم تصدر عن تجربة ولا معاناة ذاتية. وقد كثرت هذه المقطوعات بصفة خاصة في أول العهد الحفصي وفي آخره، ولعل هذا النوع استفحل في أوائل الفترة الحفصية بتأثر من الأدباء الأندلسيين الذين هاجروا الى تونس وكانوا ولوعين بهذا الغرض ينظمون فيه الأشعار، ومنهم من اشتهر أمره بتعلقه بغلام ذاع حبه فيه .

ويروى أن أبا الحجاج البياسي كان يهوى صبيا في الجزيرة الخضراء بالأندلس، وكان يجتمع به في جنة لوالده على وادى العسل، وكان ينافسه في حبه أديب آخر يقال له الفار، وأشار اليه في هذين البيتين : من البسيط المشطور

جنة وادى العسل * كم لي بها من أمل

لو لم يكن ذبابها * يمنع ذوق العسل

وقد لازم هذا الحب أبا الحجاج بتونس حيث نظم فيه الشعر وصار يتندر به[9] .

---

9) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 94-95 ، المقري : نفح الطيب : ج 3 ، ص 316-317 .

ولأبي بكر بن حبيش مقطوعات عديدة وردت في «نفح الطيب» [10]. ومما يؤثر عن أحمد بن الغماز بيتان في التغزل بطفل ادعى أنه رأى هلال الشهر لكن لم يره غيره، فقال مقارنا اياه بالهلال : من الطويل

تواری هلال الأفق عن أعين الورى * وأرخى حجاب الغيم دون محياه

فلما تصدى لارتقاب شقيقه * تبدى له دون الانام فحياه [11]

ولئن كان غرض التغزل بالغلمان دارجا في الشعر الحفصي فانه لا يدل على تهتك في السلوك أو مجون في السيرة أو خروج عن المألوف، وانما هو هزل أدبي فني كالملح في الطعام، يسعى الشعراء الى التفنن فيه. ولئن كان لا يكاد يخلو منه ديوان من الدواوين في الأدب الأندلسي أو الأدب العباسي، فانه مما لا شك فيه أن كثيرا من الأشعار التي نظمها شعراء تونسيون خلال العهد الحفصي في هذا الموضوع قد تلاشت اما لاندثار المكتبة التونسية باحتلال الاسبان ثم الأتراك لتونس أو لتغلب السلطان الديني على النفوس فآثر الناس المدائح النبوية ومقطوعات الحكم والتأمل في الحياة .

ومن المقطوعات التي بقيت لنا في هذا الغرض هذه الأبيات لمحمد بن ابراهيم التجاني : من البسيط

قطفت باللحظ من بستان وجنته * تفاحة ضرجتها حمرة الخفر

وقلت : هذا أمان من قطيعته * فالشرع قد نص أن لا قطع في ثمر [12]

وحفظ لنا الصفدى في « الوافي بالوفيات » مقطوعات في التغزل بالغلمان، منها هذه المقطوعة قالها أبو الزهر التونسي موريا في غلام يدرس علم النحو : من المنسرح

---

10) المصدر الأخير نفسه : ج 3 ، ص 461 ، 466 ، ج 4 ، ص 16 .
11) محمد النيفر : عنوان الأريب : ج 1 ، ص 68 .
12) الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 2 ، ص 15-16 .

ينظر في النحـو وهـو مجتهـد * لكنـه لا يقـول بالعطـف
قـد علـم العين فـي محاسنـه * تقـارن الابتـداء بالـوقـف [13]

ولابن عرفة في مليح هذان البيتان : من الوافر

خشيت علـى حبيـب القلب لما * أتـى حمامـه وقضـى الجنـابـا
نهـار وجهـه والجسـم زبـد * اذا طلـع النهـار عليـه ذابـا [14]

أما في آخر العهد الحفصي فقد ولع الشاعران الخلوف وابن خروف بمعالجة هذا الغرض. ويكثر الشاعر الأول من الاشارة الى الحبيب بضمير الغائب المذكر، ولا ندري هل هي الى غلام أم الى غادة، الا أن جو بعض قصائده يومىء الى كرع الشاعر من كل لذة : من الخفيف

... كـم قطعنـا بـه ليالـي وصـل * فـي استسـلام ولـذة واعتنـاق
وجلـونـا مـن الـوجـوه شمـوسـا * في الدياجي شـديـدة الاشـراق
ورشفنـا مـن الثغـور كـؤوسـا * راحهـا فيـه راحـة العشـاق
وهصرنـا مـن القـدود غصـونـا * طـارحتها بـلابـل الأشـواق
في ريـاض وورد خـد بـديـع * حـف حسنـا بنرجـس الأحـداق
حيـث ورد الوصـال أعـذب ورد * ومـذاق الفـراق مـر المـذاق

ويتغزل هذا الشاعر بحبيب مغن ماجن، يصفه لنا وهو يشد العود ويعزف بعض الألحان : من البسيط

تأبط العود يشكو عـود صبابتـه * كمـاجـن قد حـوى حـالات مجنـون
تـراه يمهلـه جسـا ويزعجـه * ضربـا بأنـواع اعـراب التلاحيـن

13) المصدر نفسه : ج 3 ، ص 264 .
14) مخطوط رقم 18768 بدار الكتب الوطنية بتونس، رصيد حسن حسني عبد الوهاب .

ولا شك أن لهذين البيتين دلالاتهما الحضارية وقيمتهما الوثائقية ولهما صلة بوسط المغنين والجواري القينات بتونس في أواخر العهد الحفصي .

أما ابن خروف فقد اشتهر بتغزله بنعمان، وأثرت عنه ثلاثة أبيات يحن فيها اليه بعد أن ابتعد عنه وغرب بالمغرب [15] .

15) انظر الأبيات في ترجمته أعلاه رقم 195 .

الفصــل الثامــن

الــوصـــف

الشعر الا أقله راجع الى باب الوصف ولا سبيل الى حصره واستقصائه .

ابن رشيق : « العمدة » ص 464 .

يتفق النقاد على أن جل الشعر وصف، نجده في كل باب من أبواب الشعر العربي وفي كل غرض من أغراضه. وقد وصف شعراء تونس في العهد الحفصي الطبيعة ببعض عناصرها والمنشآت العمرانية الجديدة التي أنشأها خلفاء بني حفص وشتى مظاهر الحضارة بتونس وقد أظهروها كما تتجلى في أعينهم وخيالهم، فرسموها في أشعارهم في لوحات فنية تعبر في أغلب الأحيان عن أحاسيسهم وعواطفهم وآرائهم وعن نظرتهم الخاصة الى ما يصفون .

1 - وصف الطبيعة :

حظيت تونس باطار طبيعي خلاب، وعرفت منذ القديم بخضرتها وجمال طبيعتها، فكانت البساتين والرياض تحيط بها من كل جانب خاصة في العهد الحفصي، وكان الشعراء يذهبون للنزهة خلال هذه البساتين تحلو لهم فيها لقاءاتهم ومقارضاتهم الشعرية، وطالما وصفوا مجالسهم وسط هذا الاطار الطبيعي الجذاب، وكم قيل من شعر في تونس وبهجتها وأنسها، استشهد به المؤرخون وأصحاب الرحلات والمعاجم الجغرافية، وقد زادها حسنا خلفاء بني حفص بما أنشأوه حولها من بساتين بأرباض البلد براس الطابية وأبي فهر [1] نص على أحدها ابن فضل الله العمرى قائلا عن الخليفة : « وربما خرج الى بستان له من أعظم ما تهممت ببنيانه الملوك، واحتفلت بغرسه السلاطين » [2]. وأشار عبد الباسط بن خليل في رحلته الى

1) العمري : وصف افريقية : ص 8 ، القلقشندي : صبح الأعشى : ج 5 ، ص 102 ، 147 . .
2) العمري : الكتاب المذكور : ص 12 .

تونس – وقد زارها سنة 867 – الى منتزهات باردو وأجنتها والقصور التي بناها هنالك السلطان أ بو عمرو عثمان قال : « خرج صاحب تونس الى المكان الذي أنشأه بباردو من الجنان العظيم فيه وما بناه من القصور والمنتزهات فدام به ثلاثة أيام »[3] .

ووصف « أدورن » منتزهات راس الطابية وباردو باندهاش وانبهار، ولاحظ أنه لم ير جنانا أجمل ولا أزهى ولا أشد اثارة للاعجاب من منتزه باردو، وأقر أن وصفه له لمن قبيل الخيال بثرائه وحسنه[4] ، ودقق أن هنالك حوالي أربعة آلاف جنان حول تونس وأن لكل الأهالي أجنة خاصة بهم يفوح منها الأريج، تزدهي بأنواع مختلفة من الأزهار، وأصناف عديدة من الغلال والثمار[5] . وقد كانت هذه الحدائق والبساتين والمنتزهات الى آخر العهد الحفصي – قبل أن يعيث فيها الاسبان فسادا – مثارا للاعجاب والانفعال وموضعا للاستمتاع والالتذاذ، وقف الشعراء ازاءها وازاء ما فيها من قصور ومنشآت وقفة المتنعمين بهذه المشاهد الخلابة متفاعلين معها، متأملين فيها، واصفين أشكالها، راسمين حالاتهم النفسية وهم يعيشون فترة من حياتهم خلالها. ويمكن أن نعد محمد الظريف شاعر الطبيعة على الاطلاق في العهد الحفصي رغم قلة القصائد المتبقية من شعره، فنحن نجد في قصيدتيه الطويلتين، اللامية والنونية، حبا عميقا للطبيعة وقدرة على الالتذاذ بما فيها من أصوات وألوان. فقد عاش في القرن الثامن وافتتن باخضرار هذه الرياض التي آنست نفسه وشدت

---

3) انظر :

- brunschving : Deux récits de voyage, p. 35, voir aussi p. 33-34.

4) المصدر نفسه : ص 199 .

5) لفت نظر أدورن خاصة أنها حدائق منسقة، وبكل جنان قصر شاهق على شكل برج وجابية جميلة تتخذ للاستحمام في الصيف، ووصف قصر ولي العهد محمد المسعود بالله وفوارة المياه والجوابي والأحواض المحيطة بالغرف. (المصدر نفسه ، ص 197-198). ولم يكتف السلاطين بالتنزه بتونس العاصمة وأرباضها بل نراهم يقصدون في الربيع منتزهات جزيرة شكلي حيث تضرب أخبية يقيمون بها أياما (القلقشندي : صبح الأعشى : ج 5 ، ص 147)، فيتمتع السلطان مع حاشيته خاصة شعراءه المرافقين له بمشاهد البساتين هنالك، ونجد اشارات عديدة في المصادر الأدبية الى منتزهات الجزيرة القبلية بالاضافة الى منتزهات ضواحي تونس، انظر مثلا : ابن سعيد : القدح المعلى، في ترجمة ابن يامن : ص 53-59 .

بصره بكثرة الأشجار وتنوع الثمار وتغريد الأطيار والماء الجاري، فكانت متعة لأذنيه وعينيه وسائر حواسه .

صور محمد الظريف في قصيدتيه مشهدا طبيعيا تصويرا جعل من الطبيعة كائنا حيا يتجاوب فيه كل ما يتحرك ويتنفس، بل ان منظر النور الساطع الخاص بالطبيعة التونسية، وهو يكتسح ظلمات الليل ليبهره فيندهش ويتمتع بصورة النور ينقض على الظلام فيهزمه، واذا بالروض يكتسي بالغلائل الرقيقة فيغدو عروسا ترتدي حللا من نور شفاف يقبلها الطل فتبتسم الأزهار : من البسيط

أما ترى الليل اذ كر الصباح على * جيوشه تبعا في جنبه أفلا
والروض أصبح يجلى في غلائله * وأنشد الطير فوق الغصن وارتجلا
وألقت القضب من أوراقها بسطا * وألبس الروض من أنواره حللا
وقبل الطل خد الأرض فابتسمت * أزهارها فغدت تزهو بِحُسْنٍ حَلاَ

ويشخص الشاعر أنواع الأزهار كائنات تحب وتخجل وتعتل وتكتئب وتحس باللوعة، متجاويا مع أصناف الرياحين وهي تخلب بصره وتفعم أنفه وتملك وجدانه وفكره وخياله، تبعث كلها على التفكير والتأمل، فهي حافلة بالألوان والحركات والاشارات فيرسمها لنا في لوحة نابضة بالحياة :

والورد لما اعتلى من فوق وجنته * ماء الحياء بدا في خده خجلا
والسوسن الغض ما أحلى شمائله * لما تفتح في البستان واكتملا
والياسمين تبدى في عساكره * منظومة الشمل لم يترك بها خللا
وان تأملت في الخيري ترى عجبا * كأنه ملك في جيشه فعلا
وثم ألوان لا يحصى لها عدد * في وصفها عجز الصباغ والعقلا
تدبير من خلق الأشيا وأبرزها * وصير الخلق في سلطانه دولا [6]

6) حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي : ص 216-217 ، وهذه الأبيات من قصيدة ما زالت مخطوطة بكنش أحد الخواص، وهي من خمسين بيتا .

ومن خلال تصوير الظريف للطبيعة يصور حالة نفسه فيبدو لنا مدنفا عاشقا، وتبدو لنا الطبيعة في عرس حقيقي قد زفّ الأحباء فيها الى بعضهم بعضا، ونلمس شغفا في نفس الشاعر بطبيعة تونس خاصة برياض أبي فهر وهي غير بعيدة عن المرسى وقرطاج حيث كان الظريف يتعبد ويعقد اجتماعاته بخلانه :

فذكرتني زمانا مر بي لعبا * زمان أنس بلذات الوصال حلا
أيام إذ كان فيها السعد يسعدنا * والدهر في حكمه اذ ذاك قد عدلا
فكم أطعت هوى نفسي وشهوتها * وكم عصيت عذولا في الهوى عذلا [7]

وتجلت صور الطبيعة في شعر الخلوف، خاصة في مقدمات قصائده المدحية في ثوب قشيب تراكمت فيه المحسنات البلاغية والأوصاف المستمدة من الشعر العربي القديم، ولا يختلف وصفه لها عن وصف ابن خفاجة في دقة الملاحظة والتصوير الوجداني، ونشير فقط الى قصيدتين له، الأولى في وصف طلوع الفجر على روض والثانية في رسم الطبيعة عامة [8] .

2 - وصف الثمار والأزهار :

فصل ابن فضل الله العمرى ثمار تونس وفواكهها من عنب وتين ورمان وسفرجل وتفاح وكمثرى وعناب وخوخ ومشمش وتوت وقراصيا [9] وأترنج وليمون وليم ونارنج وغيرها [10]. وقد شغف شعراء تونس في العهد الحفصي بوصف بعض هذه الثمار وأزهارها وصفا دقيقا موحيا. ومما يؤثر عن الأمير أبي زكرياء الأول الحفصي وصفه لخوخ أهداه لكاتبه أحمد الغساني مشبها لون هذه الثمرة بلون خد الحبيب، ومصورا امتزاج بعض الألوان بها: من الوافر

---

7) أبيات من مخطوطة الشيخ عبد المجيد بن صالح شهر السبعي أمدنا بها مشكورا .
8) حسن حسني عبد الوهاب : الكتاب المذكور : ص 224-225 ، 227-228.
9) القراصيا أو القراسيا : شجرة مثمرة من فصيلة الورديات ثمارها صغيرة ضاربة الى السواد.
10) وصف افريقية : ص 12 .

بعثت بها اليك بنات أيك * غذاها في الثرى در القطار
له لونان : مخضر عظيم * وآخر قاني كالجلنار
ولم تنظر – أبا العباس – حسنا * يروقك كاخضرار في احمرار
كمثل الخد أحجمه التلاقي * فصار ورده مثل النضار [11]

ووصف حازم القرطاجني زهر شجر اللوز وصفا طريفا : من البسيط

لا نور يعدل نور اللوز في أنق * وبهجة عند ذى عدل وانصاف
نظام زهر يظل الدر منتثرا * عليه من كل هامي القطر وكاف
بينا ترى، وهي أصداف لدر حيا * بيض غدت دررا في خضر أصداف[12]

ونشير الى وصف علي بن سعيد لزهر النارنج بطلب من الوزير أبي العلاء ادريس بن علي بن أبي العلاء بن جامع [13].

أما الورد فقد حظي بقدر كبير من الأشعار، وكثيرا ما ورد ذكره في القصائد الغزلية، تقارن به خدود الحسان. وصف أحمد الغساني الورد معجبا باختلاف ألوانه، مدققا رسمه : من البسيط

يا حسن ورد تبدى من تلونه * في أحمر قاني أو أبيض يقق
كأن مبيضه زهر النجوم ولم * يعدل بمحمره من حمرة الشفق
كأن ما اصفر منه في أواسطه * حب من السمسم المجموع في طبق [14]

ويتسم هذا الوصف عامة بالتأنق اللفظي والبديعي، وتكثر فيه التشابيه ويقوم خاصة على التشخيص .

---

11) ابن الشماع : الأدلة البينة : ص 44 .
12) المقرى : نفح الطيب : ج 3 ، ص 604 .
13) ابن سعيد : رايات المبرزين : ص 144 .
14) ابن سعيد : الغصون اليانعة : ص 47–48. وانظر عن وصف الورد خاصة ديواني حازم القرطاجني وأحمد الخلوف .

3 - وصف الحيوان :

وصف شعراء العهد الحفصي الحيوانات، لكن ما بقي لنا من القصائد في هذا الغرض قليل، نذكر ممن تناول هذا الموضوع ابن همشك في وصفه للحمام[15] وابن خلدون في وصفه للزرافة [16] على نمط وصف ابن رشيق لها، وأحمد الخلوف في وصفه للفرس [17]. ونكتفي بالاشارة الى هذه النصوص الثلاثة وهي لا تختلف كثيرا عن مثلها في الأدب العربي خاصة عن وصف الفرس في الشعر الجاهلي، تكثر فيها الأوصاف، ويحرص الشاعر فيها على التدقيق ولفت النظر الى محاسن الموصوف وحتى عيوبه مع التوفق في الاستعارة والتشبيه .

ونذكر بعض المقطوعات الطردية التي نجد فيها اشارات الى الصقور والبزاة والكلاب والوحوش والكراكي. وقد أغرم بعض الأدباء بهذا الغرض، من ذلك ما كتبه ابن همشك الى الخليفة المستنصر واصفا مشهد صيد بناحية بنزرت : من المتقارب

أيا ملكا سعده مقبل * خرجت وساعدك الجحفل

الى الصيد أرسلتها أكلبا * تصيد الوحوش ولا تقتل

يحلق صقرك وسط السماء * ويردى الكراكي اذا ينزل [18]

---

15) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 98-107 .

16) ابن خلدون : التعريف : ص 76-77 ، حسن حسني عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسي: ص 220 .

17) المصدر الأخير نفسه : ص 229-230 .

18) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 99-100، ذكر ابن خلدون من آثار المستنصر « المصيد بناحية بنزرت اتخذه للصيد سنة خمسين [وستمائة] فأدار سياجا على بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه سرب الوحش فاذا ركب للصيد تخطى ذلك السياج الى قوراء في لمة من مواليه المختصين وأصحاب يبرزون بما معهم من الجوارح : بازات وصقورا وكلابا سلوقية وفهودا فيرسلونها على الوحش في تلك القوراء وقد وثقوا باعتراض البناء لها من أمام فيقضي وطرا من ذلك القنص سائر يومه فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلها » (كتاب العبر : ج 6 ، ص 280 ، طبعة بولاق)، أما أبو عمرو عثمان فقد كان يخصص يومي الاثنين والخميس للصيد، انظر : رحلة أدورن : ص 207 ، 211-212 في

- Brunschvig : Deux récits de voyage:

وانظر اشارة الى قتل المستنصر لأسد في : « القدح المعلى » : ص 58 : بيتان لابن يامن .

4 - وصف المنشآت العمرانية والمعالم الحضارية :

ان غرض وصف القصور والحنايا الحفصية غرض أساسي في مدحيات شعراء بني حفص، وهو غرض جديد تعج به أشعار حازم القرطاجني وابن الأبار وأبي المطرف بن عميرة وابن حبيش وابن أبي الحسين، أغرقوا في وصفها وتفننوا فيه فجاء شعرهم في هذا الغرض وصفيا تسجيليا لكنه محمل بعواطف الشاعر وأحاسيسه ازاء هذه المشاهد المستحدثة التي تغير بها وجه تونس الحضاري في أوائل العهد الحفصي. ونرى هذا الوصف يقوم على صور تقليدية مستمدة من الشعر العربي القديم، ويتميز بدقة الملاحظة وحسن الاستعارة ولطف التشبيه، قد استقى الشاعر لغته فيه من بطون الكتب اللغوية. ومن الشعراء الذين وصفوا هذه القصور المستجدة ابن الأبار، فقد وقف أمام قصر أبي فهر وجنانه مبهورا لفرط علوه واتساعه وما يحيط به من أزهار وأشجار، قال : من الطويل

نمت صعدا في جدة غرفاتها * على عمد مما استجاد لها الجد
تخيلن قامات وهن عقائل * سوى أنها لا ناطقات ولا ملد
قدود كساها ضافي الحسن عريها * وأمعن في تنعيتها النحت والقد
تذكر جنات الخلود حدائقا * زواهر لا الزهراء منها ولا الخلد
فأسحاره يهدى لها الطيب منبج * وآصاله تهدى الصبا نحوها نجد
أناف على شم القصور فلم تزل * تنهد وجدا للقصور وتنهد
رحيب المغاني لا يضيق بوفده * ولو أن أهل الأرض كلهم وفد [19]

وخصص حازم قسما من مقصورته لوصف حدائق أبي فهر وعظمتها باشجارها وأزهارها وطيورها ونسيمها والجابية وما فيها من ألوان [20] ، ووصف ما يتراءى من قصور خلال الأشجار الوارفة ورسم بينها قصر أبي فهر، وهو يقع قريبا

---

19) الغرناطي : رفع الحجب المستورة : ص 78 .

20) يقع هذا الوصف في الأبيات 117-129 ، ص 24 من « قصائد » .

من بحيرة فائضة بالماء العذب المجلوب من جبل زغوان : من الرجز

وانساب في قصر أبي فهر الذي * بكل قصـــر في الجمـــال قد زرى

فقد تراءى بين بحـــر سلســـل * وسجسج من الظلال قد ضفـــا

بحيـرة أعلى الالـه قدرهـــــا * قد عـذب المـاء بها وقـد رها [21]

أما الحنايا الرومانية التي جددها المستنصر وأنفق عليها أموالا عريضة ليوصل عبرها الماء الى المنازه براس الطابية والتي عدها العبدرى من جملة غرائب الدنيا [22] وقال : « هي مما يقصر الوصف عنه لفرط اتقانها وغرابتها » [23] فقد فتن بها الشعراء ومجدوا بانيها وتباروا في وصفها منهم حازم وابن أبي الحسين وابن حبيش وأبو المطرف بن عميرة [24]. وصف حازم هذه الحنايا بدقة، وقدم لنا عنها معلومات فريدة لم ترد في كتب المؤرخين، وصف ما أضفته على الطبيعة من حولها من جمال وما أحاط بها من قصور خاصة في رياض أبي فهر، وما التف حولها من دوحات مثمرة ، فنتصورها مغشاة بالرخام والمرمر، مزوقة بمختلف الألوان البديعة في شكل حسن وتنسيق بديع واصطفاف مدهش. ولم يكتف حازم بوصفها بالمقصورة فقد وصفها في قصائد أخرى عديدة خاصة في مدائحه للمستنصر مثل البائية التي يصف فيها مفعول لون الرخام الذي كان يكسوها [25] : من الطويل

أقيمت عليـه من رخـام ومرمـر * قسـي أقامتهـا الأكـف الدوارب

قسي قد اصطفت فراق انتظامها * كما راق نظـم اللـؤلـؤ المتنـاسب

---

21) رها : سكن، والأبيات في « قصائد » : ص 23-24 ، ابن قنفذ : الفارسية : ص 128، والبيت الثاني ورد محرفا هنا وقد استشهد ابن قنفذ بمناسبة ذكره لجلب ماء زغوان الى تونس سنة 665 بأبيات حازم هذه وأبيات أخرى في وصف أبي فهر لكن بدون أن ينسبها لأصحابها (128-129) .

22) و (23) الرحلة : ص 40 .

24) دبج أبو المطرف رسالة نثرية في وصف الحنايا أورد شارح المقصورة الحازمية بعضا من فقراتها في « رفع الحجب المستورة » : ص 77 وما بعدها .

25) قصائد : ص 96-97 .

وزينت بألوان تروق كما اكتست * بأوشية الزهر الرياض العوازب

مياه كسلسال الرضاب يحفه * رخام لمبيض الثغور مناسب

فكم أبيض ما شانه لون كدرة * على أزرق ما كدرته الشوائب

تساوى بسيط منهما ومركب * صفاء فذا في الحسن عن ذاك نائب

وقد عارض هذه القصيدة محمد بن أبي الحسين فشخصها فاذا بها تصبح حية نشيطة، تحنو وتطرب، تشكو وتشرب : من الطويل

ومحنية الأصلاب تحنو على الثرى * وتسقي بنات الترب در الترائب

..وأطربها رقص الغصون نوابلا * فدارت بأمثال السيوف القواضب

وما خلتها تشكو بتحنانها الصدى * ومن فوق متنيها اطراد المذانب

وتحسبها والروض شربا وقينة * كمن حولها ما بين شاد وشارب (26)

ويمكن أن نعتبر الأبيات التي وصف بها أبو بكر بن حبيش الحنايا بعد سنوات قليلة من وفاة المستنصر كوثيقة لما صارت عليه، ولعلها تطابق حالة ما تبقى منها اليوم : من الوافر

تمتع من بقايا للحنايا * بأبدع منظر تصبو اليه

تأمل صنع أرسمها البواقي * وقد مد الفناء لها يديه

كسطر بعض أحرفه تمحى * وبعض لاح مضروبا عليه (27)

---

26) ابن سعيد : رايات المبرزين : ص 96-97 ، أورد منها الغرناطي في « رفع الحجب المستورة » ثلاثة أبيات فقط : ص 136 .

27) الغرناطي : رفع الحجب المستورة : ص 74 ، ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 122 ، قال ابن رشيد عن هذه الأبيات : « هي من أبدع الوصف تبينه المشاهدة ». وانظر ملاحظة عدد 28 ، ص 696 .

الفصـــل التاســـع

الخمـــريـــات

أنتجت هجرة الأدباء الأندلسيين الى تونس في أول العهد الحفصي خلال حكم أبي زكرياء والمستنصر أدبا يدل على تنعم هذه الفئة الاجتماعية بالحظوظ المادية التي وفرتها لهم الحضارة الجديدة وحصلوا عليها بعد تشرد وتيه قبل أن يستقروا نهائيا بالعاصمة الحفصية .

ان متصفح كتابي « القدح المعلى »و« رايات المبرزين » لابن سعيد وكتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار يلاحظ فيها أشعارا تتصل بحياة اللهو والاستمتاع، وتصور الجو الذي كان يسود علاقات عدد من الشعراء الأندلسيين النازلين بتونس والشعراء أصيلي افريقية من الذين كانوا متعلقين بمتاع الدنيا، يقطفون من ثمار الأنس ما طاب لهم في اطار من الطبيعة التونسية الجميلة، كانوا يقرضون قصائد يذكرون فيها الخمرة ومجالس الشراب التي كانت تنتظم بفتية الصدق. وقد وصفوا الخمرة ودعوا الى مجالسها مرغبين فيها ، مبررين شربها ، ووصفوا الساقي والاطار المكاني والزماني، وقد ظهرت في بعض هذه الخمريات نفسية الشاعر الذي اتخذ من اللهو ومعاقرة بنت الدنان مذهبا في الحياة .

الا ان هذه النزعة قد لاقت معارضة شديدة من قبل سلاطين آل حفص خاصة بعد وفاة المستنصر، لا سيما أن خلافتهم كانت قائمة على أسس عقائدية دينية غايتها تطهير الحياة الاجتماعية من الفساد والانحلال الأخلاقي .

– **وصف الخمرة :** لا يختلف وصف الخمرة فيما تبقى لنا من الخمريات في العهد الحفصي عن غيره في خمريات أبي نواس وبشار بن برد، فهي تبدو لنا عتيقة، بكرا، لها تأثير شديد في النفوس، تدخل السرور في القلوب، وتنسي الشارب همومه. قال أحمد الغساني ذاكرا مجالسه أيام الخميس حين يجتمع الصحب حول

خمرة حمراء : من مجزوء الرجز

ان ليـــــوم الاخمســـــه * مواثقـــــا مؤسســــه
نجمـــع فيهـــا شملنـــا * ببكرنـــا المعنســــه
ولـم تـــزل تضحـــك منـــا أوجهـــا معبســــه
مـــا عبســـت مـــن زائـــر * ثقـــل يومـــا مجلســـه
بـــل مـــن حميـــا قهـــوة * حمـــراء أو مـــورســــه [1]

وأحيانا يتناولها الخلان خليطة بعصير الأترج وهو جنس من الليمون، وهذا المزيج هو ما دعا اليه ابن أبي الحسين في خمرية له : من الطويل

فدع ذا وخذها شائبات قرونها * عروبا لعوبا جائزا حكمها بكرا
... قرنت بها صفراء لم تدر ما الهوى * ولا ألفت وصلا ولا عرفت هجرا [2]

ويصل عشق الشاعر للخمرة الى حد اعتبارها روحه، فيحسّ أن دنان بنت الحان قد صارت جزءا من كيانه وجسمه. وهكذا دان محمد بن أبي تميم بدين ابن هاني : من الخفيف

هي روحي ، وأن أشـأ قلت روحـي * فلتعيـدا روحـي الى جثمانـــي
فلو أني بلغت أدنى الأمــانـي * كان جسمي من بعض تلك الدنان [3]

- الدعوة الى شرب الخمرة : لا تخلو خمرية من الخمريات المتبقية لدينا من العهد الحفصي من دعوة الى شرب الراح، ويحرص الشاعر أحيانا على تبرير قطف ساعات الأنس مؤملا في عفو الله وصفحه. قال الغساني : من الطويل

1) القدح المعلى : ص 16-17 .
2) رايات المبرزين : ص 97 .
3) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 379-382 ، من قصيدة « رقم العذار في التهنئة بالختمة والإعذار » ابتدئت بعشرة أبيات خمرية .

وهل من جناح ان حننت لصبوة * وأبديت من فرط الغرام جنوحا
فصافح أكفا بالكؤوس مشيرة * وأبشر بأن تلقى الاله صفوحا
ولا تمنعن النفس لذة ساعة * لترضي عدوا أو تطيع نصوحا
ولا خير فيمن قدته لمسرة * فلم تلفه طلق العنان طموحا [4]

وحين عزم أبو المطرف بن عميرة المخزومي على التوبة وفراق مجالس الأنس فراقا لا لقاء بعده ، فزع صحبه من قراره وكاتبه أحمد الغساني جهرة يغريه بالعودة الى مجالسه ويذكره بالماضي حيث كان أحب ندمانه اليه [5]. وقد كانت الدعوات الشعر ية توجه بصفة خاصة للتذكير بالموعد الأسبوعي المحدود وفيها حث على المجيء للمشاركة في مجلس الأنس، قال أحمد الغساني يستدعي صديقا له، كتب اليه من جنانه بالوطن القبلي الى تونس : من مجزوء الكامل

بكر فديتك في غد * اذ كان موعدنا الخميس
فالروض موشى الحلى * والقضب في الحلل تميس [6]

– **وصف الساقي** : تغزل الشعراء بالساقي، فهو طلق المحيا، شديد الجمال، يتعشقه الشاربون، ويبدو من خلال الخمريات التي لدينا في صورة البدر وحينا في صورة ظبي. قال أحمد اللياني : من الخفيف

كيف أنسى عهدا كريما وأنسًا * بذلا لي من خالص الود شهدا
...اذ يعاطيني المدامة بدر * يخجل البدر نوره ان تبدى [7]

أما الغساني فهو يهفو الى الساقي بكل حرقة : من مجزوء الرجز

4) القدح المعلى : ص 16 .
5) انظر أعلاه ص 603 .
6) القدح المعلى : ص 14 .
7) انظر أعلاه ترجمة اللياني رقم 33 .

... يديرها الظبي الذي * صير قلبي مكنسه
عجبت من ساكنه * أما توقى قبسه
رياض حسن ليتني * ممن جنى مغترسه
فمن خدود ورده * ومن جفون نرجسه
ان الليالي لم تزل * بمؤنس لي مؤنسه
وانها عن بعض ما * ينهضنا لمجلسه [8]

ويرمي هذا الوصف الى اثارة الندمان وتحريك شعورهم للتمتع بجمال الساقي، وهو يصور احساس الشاعر وهو يخلع عذاره في الهوى والمجون .

– **الاطار المكاني والزماني** : كانت بتونس ملاه وحانات في أطراف المدينة بباب البحر وفي وسطها حتى قرب جامع الزيتونة، حيث أقيمت زاوية أحمد بن عروس مكان حانة. وكم من مدرسة بنيت في موضع فندق كانت تباع فيه الخمرة [9] وكانت تستورده خاصة من مرسيلية وتباع بكل حرية [10]. وقد حددت بعض الخمريات الظرف المكاني والزماني الذي يجتمع فيه الخلان لمعاقرة المدامة. قال الغساني : من الطويل

ولله در الأنس في كل حالة * تروق غبوقا أو تشوق صبوحا [11]

وقد أشرنا أعلاه الى موعد الخميس بالوطن القبلي، وكان يعقده الغساني في جنانه، يأتيه أصحابه من العاصمة راكضين خيلهم : من مجزوء الرجز

---

8) القدح المعلى : ص 16-17 .
9) ابن قنفذ : الفارسية : ص 196 ، الزركشي : تاريخ الدولتين : ص 47 .
10) انظر : Le Comte De Mas Latrie : Relations et commerce de l'Afrique Septentrionale ou Magreb avec les Nations Chrétiennes au Moyen Age, Paris 1886, p.154, 168.
11) القدح المعلى : ص 16 .

وليلنــا يبــدى لنــا * خنســه وكنســه
ومــن أتــى فليتــركــن * عنــه بعيــدا فـرســه [12]

أما في شهر رمضان فان عشاق الخمرة يحرمون من اشترائها وتناولها، ويتخلون عن عاداتهم، فنرى ابن أبي تميم يفزع ويبكي من قدوم هذا الشهر اذ سيعوض كأس المدام والابريق بشيء آخر لا يرغب فيه، قال : من المتقارب

بسـوق الزجـاج جـرت عبـرتي * فـوليـت عنـه بقلـب قـريـح
لتبـديـل كـأس بصبحيـة * وابريـق راح بقنـديـل ريـح [13]

– **نفسية الشاعر** : صور الشاعر في هذه الخمريات تلهفه على متع الحياة، ويظهر فيها متعلقا بأذيال المادة ومنهم من لا يتورع عن تسمية نفسه بالخليع [14] ، ومنهم من يصرح أن مذهبه في الحياة هو التصابي ويدعو اليه، مثل اللياني اذ يقول : من الخفيف

ان دينــي ومذهبــي للتصابــي * لا أرى غيـره مـدى الدهـر رشـدا
فاغتنـم رابحـا مسـرة يـوم * ولتبـادر سيـر الزمـان مجـدا

وتصور هذه الخمريات حال أصحابها وهم يلتذون بعناصر فنية عديدة، فكأنهم ضاقوا بالحياة اليومية ورغبوا في الانطلاق منها الى أجواء أبيقورية تمكنهم منها مجالس الأنس والفتك والتصابي. وتبقى أشعار الخمريات الراجعة الى العهد الحفصي قليلة جدا، نتنسمها في بعض الصفحات أو بعض الفقرات النادرة الواردة في عدد من المصادر المشرقية، ولا شك أن كثيرا من الخمريات قد ضاع، لكن ما تبقى لنا منها شاهد على جو الأنس الذي كان يعيشه خلان الوفاء ومعبر عن نفسياتهم وميولهم [15] .

---

12) المصدر نفسه : ص 16-17 .
13) الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 2 ، ص 279 .
14) في أول القصيدة المذكورة في الملاحظة أعلاه رقم 3 ، وهي لابن أبي تميم.
15) انظر : السيوطي : بغية الوعاة : ج 2 ، ص 210 ، ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات : ج 2 ، ص 93 .

خاتمة : ان ما استعرضناه من شعر في الخمر يرجع الى أيام صدر الدولة الحفصية، اذ تطورت الحياة في هذا العهد، وأقبل الخلفاء والوزراء وكبار الموظفين والتجار على بناء القصور وانشاء البساتين والتفنن في التلذذ بالحياة، ونعلم من المصادر أنه كانت تزف للمستنصر كل يوم جارية [16] وكان السلطان أبو زكرياء يخلو كل ليلة بعد أذان المغرب الى لذاته [17] وكان محمد بن أبي فارس ولي العهد يؤثر اللهو على الملك وكان مغرما بالجواري وقد نهاه والده عنهن فلم يرتدع [18].

الا ان هذه النزعة الى الحياة اللاهية قد تقلص ظلها حين اشتد ساعد المدرسة الفقهية التونسية على أيدي أبي القاسم بن زيتون وتلميذه محمد بن عبد السلام ثم محمد بن عرفة وطلبته، واستشرت الحركة الصوفية في البلاد. فلا عجب أن يظهر بعض سلاطين آل حفص غضبهم فيهدمون الحانات ويبنون مكانها زوايا أو مدارس أو جوامع [19]. وقد استجاب الأمير الحفصي محمد بن أبي يحيى أبي بكر لمشاعر العامة حين ذم الخمرة في هذين البيتين [20] : من السريع

ما الخمر الا شبهة للفتى * والمعالي أصبحت ناهبة

تزري بعقل المرء من حينها * لا أحسن الله لها عاقبة

واتجه الشعراء الى المواعظ الدينية والأخلاقية .

---

16) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : المجلد 3 ، ج 5 ، ص 349 .
17) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات : ج 2 ، ص 321 .
18) السخاوي : الضوء اللامع : ج 8 ، ص 58-59 .
19) أمر الدعي المسيلي بقطع الخمرة وهدم الفندق الذي تباع فيه وبني موضعه جامعا للخطبة : الزركشي : تاريخ الدولتين : ص 47 ، وكذلك أمر أبو فارس بهدم الفندق الذي كانت الخمرة تباع فيه بباب البحر وبنيت مكانه زاوية : ابن قنفذ : الفارسية : ص 196 .
20) تاريخ الدولتين ص 75 .

الفصـل العـاشـر

المـواعـظ الدينيـة والأخلاقيـة

من الأغراض الدارجة في الشعر الحفصي المواعظ الدينية والأخلاقية يقولها الشاعر خاصة بعد أن تتقدم به السن وتحنكه التجارب، وهي صادرة في جلها عن موقف معين من الحياة والناس، ويتجلى فيها ما كان يشغل فكر قائلها في فترة من فترات حياته من أفكار واهتمامات. وتقوم هذه المواعظ عامة على الدعوة الى التقوى والورع والقيام بالأعمال الصالحة، وتذكر بيوم الحساب وتوصي بالاستعداد له، وتلح على فكرة حتمية الموت، وقد برز في هذا المجال أحمد بن الغماز اذ أكثر من تناول هذا الغرض في شعره، من ذلك : من الطويل

هو المـوت فاحذر أن يجيئك بغتـة * وأنت على سـوء من الفعـل عاكـف

واياك أن تمضي من الدهـر ساعـة * ولالحظـة الا وقلبـك واجـف

وبادر باعمـال تسـرك أن تـرى * اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

ولا تيأسـن من رحمـة اللـه انـه * لـرب العبـاد بـالعبـاد لطائـف [1]

ويقرع ابن الغماز المغرورين بالدنيا، والمخدوعين بسرابها، ويطلب محاسبة النفس قبل فوات الأوان، وينصح بالتعلق بالله وحده وعدم التوكل على الناس والتفكير الدائم في اليوم الآخر : من البسيط

يا منفق العمر في حرص وفي طمـع * الى متى ؟ قد تولى وانقضى العمر

الى متى في التمادي في الضلال أما * تنبيك موعظة لو تنفـع الـذكر ؟

بادر متـابـا عسى ما كان من زلل * وما اقترفت من الآثـام يغتفـر

وجنـب الحرص واتركـه فمـا أحـد * ينال بالحرص ما لم يعطـه القـدر

---

1) المقري : نفح الطيب : ج 4 ، ص 321-322 .

ولا تؤمـل لمـا تـرجـو وتحـذره * مـن ليـس في كفـه نفـع ولا ضـرر
وفوض الأمـر للرحمـان معتمـدا * عليـه في كل مـا تأتـي ومـا تـذر
واحذر هجوم المنايا واستعد لها * مـا دام يمكنـك الاعـداد والحـذر (2)

ومدار شعر ابن الغماز حول فكرتين رئيستين : التعلق بزخرف الحياة الدنيا غرور وباطل وخسران، والموت قريب ينبغي الاستعداد له. ولا ينبثق هذا الشعر عن رؤية فلسفية عميقة وانما هي تأملات دينية لها صلة بالمجتمع تسلق التكالب على المال والطمع في المناصب، ونجد فيها أصداء لزهديات أبي العتاهية .

وقد سلك أبو بكر بن حبيش في آخر حياته أيضا هذا المسلك فنراه ينتقد التشبث بـ« الدنيا الدنية » والطمع في متعها. ولعل هذه الأشعار موجهة الى فئة الأغنياء وأصحاب المناصب العليا في الدولة الحفصية، وتعبر عن المشاعر الشعبية العامة وتدعو الى الانابة الى الله وتصفية النفس من أدران الدنيا والرقي بها نحو حياة روحية سامية، ويجب أن لا ننسى أن هذه الأشعار تساير نشأة الأدب الصوفي بتونس وبداية تكون الطريقة الشاذلية منذ أن حل أبو الحسن الشاذلي قبل أن يهاجر الى مصر سنة 613 ويخلف بالعاصمة الحفصية تلامذة ومريدين. قال ابن حبيش : من البسيط

قالوا : تصبر عن الدنيا الدنية أو * كن عبدها واصطبر للذل واحتمل
لا بد من أحد الصبرين ، قلت : نعم * الصبر عنها بعون الله أوفق لي (3)

وتمثل هذه المواعظ نزعة اجتماعية تصور صنفا من المجتمع كان يئس من الحياة المطمئنة، فكثير من الشعراء قد ألزموا نفوسهم في أواخر حياتهم أن لا ينظموا بيت شعر الا في توحيد الباري أو مدح نبيه مثل ابن حبيش، « وعلى ذلك

2) ابن القاضي : درة الحجال : ج 1 ، الترجمة عدد 106 ، محمد النيفر: عنوان الأريب : ج 1، ص 68 .
3) المقرى : نفح الطيب : ج 3 ، ص 227 .

انقضت أيامه واتصل به حمامه »[4] ، وكذلك ابن الأبار، فقد التجأ بعد خيبته في البلاط الحفصي الى قرض الشعر الديني ونظم المواعظ فأنشأ « مظاهرة المسعى الجميل ومحاضرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل » لأبي العلاء المعرى [5]، وهي جملة من التأملات النثرية والشعرية في الحياة الدنيا والآخرة تخص لباس التقوى وخلع الهوى وأصل الانسان ومآله، ونظم كثيرا من القصائد المستوحاة من حياته يدعو فيها الى التزهّد والتقشف والحذر من شرور الحياة [6] ، من ذلك هذه الأبيات من قصيدة عينية تبلغ 29 بيتا : من البسيط

ولا تعرج على أعراض فانية * توليك هجرا اذا أوليتها ولها

... وادأب على البر والتقوى فبابهما * الى السعادة مفتوح لمن قرعا

ولا تفارق فيها صدى ومخمصة * تنل بدار الخلود الري والشبعا

ساعد مباعدها واحذر مكائدها * ان الفطام على آثار من رضعا

. . وان لحت فصنع الله معتبرا * وان أصخت فللقرآن مستمعا [7]

وقد غص كذلك أبو محمد عبد الحميد بن أبي الدنيا في حياته، وعثر به الحظ لدى المستنصر فأخذ يعتبر من تجربته مشيرا الى الخطر الناتج عن مصاحبة السلطان، يقول متشائما بالحياة، ضائقا بالناس والمجتمع، داعيا الى النفور من البشر : من الكامل

طرق السلامة والفلاح قناعة * ولزوم بيت بالتوحش مؤنس

يكفيه أنسا أن يكون أنيسه * آي القران ونوره في الحندس

واذا رأت عيناه انسانا أتى * فلينفرن نفور ظبي المكنس

---

4) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 110

5) توجد نسخة فريدة لهذه المعارضة بدار الكتب الوطنية بتونس كتبت في صفر 651 ، رقمها 15053 ، وقد نشرت بسلسلة « رسائل ونصوص » باشراف صلاح الدين المنجد .

6) بذيل المخطوط المذكور في الملاحظة السابقة يوجد عدد منها .

7) المصدر نفسه : ص 151-152 .

ولقلما ينفك صاحب مقول * من زلة أو عثرة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل * حتى يراها في مقام المفلس [8]

ولاقى أيمن التونسي الغربة بعد ابعاده من تونس ، فتاب الى الله ونصح صديقه بمجموعة من الصفات الحميدة [9]. وترمي كل هذه المواعظ الى التمسك بالقيم الأخلاقية السامية وتوجه نحو المبادئ الاسلامية الروحية التي يحتاج اليها المجتمع في العهد الحفصي خاصة خلال الفتن والحروب ولدى الاحساس باستشراء الظلم والتكالب على المادة مما بعث شعورا لدى الأفراد بعدم الاستقرار النفسي، وتتلاءم هذه المواعظ من جهة أخرى مع ميول بعض الشعراء الى التأمل في الوجود والاعتبار بالحياة، وميول آخرين الى التوجيه الأخلاقي حسب مبادئ التربية الاسلامية .

وقد جاءت جل هذه المواعظ في قالب حكم متوالية موجزة في أسلوب سهل بسيط، يخلو من التأنق الفني والزخرف اللفظي، يحاول به الشاعر التأثير المباشر في النفس ونشر نصائحه لدى جميع الناس [10] .

---

8) محمد النيفر : عنوان الأريب : ج 1 ، ص 69 .
9) انظرها في ترجمته أعلاه رقم 118 .
10) من المواعظ موعظة أبي يحيى أبي بكر بن عقيبة القفصي تلميذ ابن عرفة وعظ بها صديقه أحمد القلشاني. انظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج : ص 357 .

الفصل الحادي عشر

نجدة الأندلس

لعل أشهر قصيدة قامت على هذا الغرض هي سينية ابن الأبار التي أنشدها أمام أبي زكرياء الحفصي، الا أنها ليست الوحيدة في بابها، فلم يتخلف شاعر من شعراء الأندلس المهاجرين الى تونس عن انشاء القصائد العديدة يستنجدون فيها بالسلطان أبي زكرياء ثم بابنه المستنصر من بعده ليهبا لنصرة الاسلام والمسلمين بالجزيرة المغلوبة على أمرها. ونجد في كتاب « نفح الطيب » قصائد عديدة من أهمها قصيدة أبي المطرف بن عميرة الدالية [1] ، وفي ديوان حازم القرطاجني خمس قصائد خصصها لدعوة أبي زكرياء لنصرة الاسلام والمسلمين بالأندلس [2] .

الا أن سينية ابن الأبار قد لاقت نجاحا كبيرا، وحظيت بشهرة واسعة، قال عنها ابن سعيد : « عارضها كثير من الشعراء ما بين محظي ومحروم، وأغرى الناس بحفظها اغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم » [3]. وهي تتألف من 27 بيتا أولها : من البسيط

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا [4]

قالها ابن الأبار حين مثل أمام أبي زكرياء مرسلا في وفد من قبل زيان بن مردنيش عندما زحف ملك أرغون الى بلنسية واشتد هنالك على المسلمين وكاد اليأس يقضي على كل أمل. كان ابن الأبار، وهو ينشد سينيته، لسان أهل الأندلس عامة بل وكل المسلمين الذين حز في نفوسهم أن تضيع الأندلس مدينة مدينة، فوضعوا في

1) ج 1 ، ص 308 .
2) قصائد ومقطعات : قصائد عدد 7 ، 19 ، 38 ، 49 بالاضافة الى الأرجوزة .
3) القدح المعلى : ص 191 ، ولم تبق لنا أي معارضة لها، وانظر قول الغبريني عنها وما أثارته من ضجة نقدية في الترجمة أعلاه رقم 27 .
4) القصيدة في : المقرى : نفح الطيب : ج 4 ، ص 456-460 ، ابن خلدون : التاريخ : المجلد 6 ، ص 600 وما بعدها .

أبي زكرياء الحفصي كل أملهم في تخليص الجزيرة من النصارى، فهو الوحيد في نظرهم يمكن له أن ينقذ الأندلس من الهزائم المتكررة التي أصابت المسلمين بها، فأرسل ابن الأبار في قصيدته صيحة فزع وهلع، صور الأندلس في حالة يأس، شمسها مائلة الى الغروب، تجرى فيها أحداث تحزن القلوب من سبي للعقائل المحجوبة، وانقلاب المساجد الى كنائس والكتاتيب وسائر المعاهد التعليمية الى معاهد تغلب فيها التثليث على التوحيد :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا * للنائبات وأمسى جدّها تعسا

... وفي بلنسية منها وقرطبة * ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الاشراك مبتسما * جولان وارتحل الاسلام منبئسا

وصيرتها العوادي الحادثات بها * يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

كان ابن الأبار في هذه القصيدة سفيرا واعيا بمسؤوليته، محاميا يدافع عن قضيته، صور فيها مشاهد تستصرخ نفسها بنفسها أبا زكرياء كي يهب لانقاذ الأندلس المنكوبة، وقدم الحجج العاطفية والدينية التي من شأنها أن تثير في النفوس مكامن الغيرة والحماس، فما بالك في الأمير الصاعد نجمه والقوى عزمه أبي زكرياء ؟ كان ابن الأبار في المستوى المطلوب منه، وأي لغة يفهمها أبو زكرياء غير لغة الشعر وهو الشاعر الفحل ؟ فكانت القصيدة بمثابة الجرس المنبه للخطر المحدق بالجزيرة، فكثر صاحبها من الاشارات الى أن دين الاسلام في بلاد الأندلس قد أصبح موليا على أعقابه. ووصف حال المسلمين هنالك وما يعانونه كل آن من مآتم وأحزان مقابل الأفراح والأعياد عند النصارى، وألح خاصة على أن هذه المعركة هي بين التوحيد والتثليث، بين الهدى والضلال، بين التنزيه والاشراك :

فأين عيش جنيناه بها سمرا * وأين غصن جنيناه بها سلسا

مَحَا محاسنها طاغ أتيح لها * ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا

وريع أرجاءها لما أحاط بها * فغادر الشم من أعلامها خنسا

خلا له الجو فامتدت يداه الى * ادراك ما لم تنل رجلاه مختلسا

بينما أبو زكرياء هو خليفة المهدي، ومحيي دعوته الموحدية، وهو الوحيد في بلاد الاسلام اذ ذاك كان معقد الآمال كما عبر الشاعر :

مبــارك هــديــه ، بــاد سكينتـــــه * مـا قـام الا الى حسنـى وما جلســا

قد نــور اللــه بالتقـوى بصيرتــــه * فما يبالي طـروق الخطــب ملتبسـا

... من ساطع النور صاغ الله جوهره * وصـان صيقلـه أن يقـرب الــدنسـا

وقـد تـواتـــرت الأنبـــاء أنــك مـــن * يحيي بقتـل ملــوك الصفـر أندلسا

طهــر بلادك منهــم انهــم نجـــس * ولا طهــارة مــا لــم تغســل النجسـا

وقـد قـامت هذه القـصـيـدة بدورها في تسـجيلها لجـزع أهالي الأندلس وهم يتوقـون البلوى صبح مسـاء، تعصف بهم النائبات وقـد عمـهم القنوط، وتسـرب في نفوسهم الهلع وانكسروا وخذلوا. كانت القصيدة تقريرا نفسانيا وعسكريا دقيقا عن وضع البلاد الأندلسية وهي في حالة سقوط تام بين أيدى الأعداء. وتذكرنا لهجة هذه القصيدة حينما يخاطب صاحبها الأمير الحفصي بأبي الطيب المتنبي وهو يمدح سيف الدولة ويمجد انتصاراته، وقد وصل فيها الى حد تقديس المخاطب، ولاءم هذا التقديس مناسبة الدعوة الى تخليص البلاد الأندلسية من أخطار التثليث. وقد تأثر أبو زكرياء بهذه القصيدة، يقول ابن خلدون : « فأجاب الأمير أبو زكرياء داعيتهم وبعث اليهم أسطوله مشحونا بمدد الطعام والأسلحة والمال مع أبي يحيى بن يحيى الشهيد أبي اسحاق بن أبي حفص، وكانت قيمة ذلك مائة ألف دينار، وجاءهم الأسطول بالمدد وهم في هذا الحصار، فنزل بمرسى دانية، واستفرغ المدد بها ورجع بالناض إذ لم يخلص اليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه، واشتد الحصار على أهل بلنسية وعدمت الأقوات وكثر الهلاك من الجوع، فوقعت المراوضة على اسلام البلد فتسلمها جاقمة ملك أرغون في صفر 36 [6] ، وخرج عنها ابن مردنيش الى جزيرة شقر فأخذ البيعة على أهلها للأمير أبي زكرياء ورجع ابن الأبار الى تونس »[5] .

---

5) التاريخ : المجلد 6 ، ص 604 ، لكن الأندلس كانت في حاجة الى جيش ينقذها !

ولم يكن ابن الأبار الشاعر الوحيد المستنجد بأبي زكرياء وخلفاء بني حفص عموما لنصرة الأندلس، بل تواصلت حركة الاستنجاد على ألسنة زملائه من الشعراء المهاجرين الى تونس، ومن أهمهم أبو المطرف بن عميرة وحازم القرطاجني. فقد أشرنا في أول هذا الفصل الى قصيدة أبي المطرف الدالية وهي من27 بيتا أولها : من الرمل

شاقه غب الخيال الوارد * بارق هاج غرام الهاجد

ووردت ضمن رسالة نثرية، وهي قصيدة مدحية لأبي زكرياء الحفصي خصص فيها أبياتا للبكاء على الأندلس وحفز فيها الأمير على نصرة المظلوم وقهر البغي. وكم شكا أبو المطرف في شعره من الزمان وسوء الحال وتألم لما أصاب بلنسية « جنة الخلد » من رزء خلف نارا مؤججة بين الجوانح لا تنطفئ : من الطويل

أمن بعد رزء في بلنسية ثوى * بأضلاعنا كالنار مضرمة الوقد

يرجي أناس جنة من مصايب * تطاعن فيهم بالمثقفة الملد

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد ؟[6]

ومن القصائد الداعية أبا زكرياء لنجدة الأندلس القصيدة التي يخاطبه فيها بعضهم بتسعين بيتا [7] ويبكي المعاهد المستلبة : من الكامل

نادتك أندلس فلب نداءها * واجعل طواغيت الصليب فداءها

... رش أيها المولى الرحيم جناحها * واعقد بأرشية النجاة رشاءها

... جرد ضباك لمحو آثار العدى * تقتل ضراغمها وتسب ظباءها

---

6) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 48 ، وانظر شعرا لأبي المطرف في هذا الغرض في : الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 7 ، ص 135-136 ، المقري : نفح الطيب : ج 1 ، ص 316-317 .

7) المصدر الأخير نفسه : ج 4 ، ص 479-483 بدون نسبة الى قائلها، ويتعجب الشاعر فيها :

عجبا لأهل النار حلوا جنة * منها تمد عليهم أفياءها

... أرسل جوارحها تجئك بصيدها * صيدا وناد لطحنها أرحاءها

هبوا لها يا معشر التوحيد قد * آن الهبوب وأحرزوا علياءها

ونشير الى أن مقصورة حازم قد ألفها صاحبها أساسا لمدح المستنصر لكنه خصص جانبا كبيرا منها الى بث لواعج نفسه وأوجاعه وهو يرى بلده قرطاجنة الأندلس يعيث فيها الأعداء فسادا وتسقط بين أيديهم مأسوفا عليها. وقد ضمن قصيدته بكاء مرا ولهفة حارة على مدينته وقد ملكها النصارى، وهو ضائق النفس بالغربة وبحياة قضاها في التنقل من مكان الى آخر قبل أن يستقر بتونس، وقد اتسمت معاني المقصورة بأبعاد وجودية فلسفية. ولم يقتصر حازم على مقصورته في لفت المستنصر الى الأندلس فما انفك يردد هذه المعاني في قصائد عديدة استنجد به فيها ومن قبله بأبيه داعيا اياهما الى نصرة الاسلام والمسلمين بموطنه الأصلي [8]. وقد أذكت انتصارات أبي زكرياء على أعدائه بافريقية والمغرب جذوة أمل أهل الأندلس في الأخذ بثأرهم، وزادت فتوحه المتوالية في أقصى المغرب من أسباب رجائهم في أن يقوى عزم السلطان الحفصي على وطء الجزيرة بجيشه. قال حازم مخاطبا أبا زكرياء مؤكدا بيعة اشبيلية له : من الكامل

ولفتح حمص في الفتوح مزية * فيحق فيها أن يسمى الأكبرا

مدت اليك يد المطيع، وبايعت * منك الامام المرتضى المتخيرا

وهي العقيلة حسنها مستأهل * أن يصدق الصنع الجميل ويمهرا

فقبلتها لا لازدياد ضخامة * بل رغبة في أن تثاب وتؤجرا [9]

وبعد أن يصف ما يضطرب في نفوس أهل الأندلس من بوارق الأمل وما يحسونه من تعلق به، واصل خطابه لأبي زكرياء :

8) انظر قصائد عدد : 7 ، 19 ، 38 ، 49 من « قصائد ومقطعات » .

9) القصيدة عدد 19 .

فعد الجزيرة نصرة، تقري بهـا * أشـلاء طاغية النصارى الأنسـرا

... بشر بني حمص، وأندلس بما * سيعيد منها عامرا ما أقفرا

وفي قصيدة عدد 38 ، يشير حازم الى أن السلطان الحفصي هو حامي الأندلسيين الذين حلوا بتونس وقد كفل لهم الأمن والرزق حتى أبدلوا بوطنهم وطنا ثانيا : من الكامل

بك أحييت آمالهم ونفوسهم * اذ حاولت أيدي العدى اهلاكها

فجميعهم – من وافد أو قاعد – * أهداك مهجته، بل استهداكها

سكنت بظلك في الأمان نفوسهم * حيث الأماني قد أطلن حراكها

ولقد ذهبت نداءات الاستنجاد سدى فلم يجتز أبو زكرياء حدود الجزيرة ولم يعلن الجهاد بها واكتفى باستقبال من هاجر منها اليه كما أن المستنصر لم يرحل هو أيضا الى فتح الأندلس لكننا رأينا النصارى يقصدونه في موطنه ويحلون بقرطاج طامعين في الاستيلاء على افريقية، مهددين خلافته بالزوال. الا أن الشعراء قد نفسوا عن كربتهم بالقريض وقاموا بواجبهم في هذه القصائد فكانوا سفراء لقضيتهم بالعاصمة الحفصية .

الفصل الثاني عشر
الفنيات الأسلوبية

ليس الفصاحة الفاظا مسجعة * ولا قريضا غدا بالوزن مشتهرا

بل الفصاحة معنى رائق بهج * يكسوه لفظ بهي يشبه الدررا

ابن شباط : « صلة السمط » : ص 23 أ .

اقتفى شعراء العهد الحفصي أثر الشعراء القدامى في أغراض شعرهم وفنياتهم الأسلوبية وخاصة في التزامهم النظام الموسيقي المعهود للشعر الذي رتبه الخليل بن أحمد، لذلك نجد لديهم عناية بدراسة القوافي والبحور وقد طلب المستنصر من حازم القرطاجني أن يؤلف له رسالة في القوافي فكتب « ايراد المناهل الصوافي في تعداد ضروب العلل والقوافي »[1] ، كما أن عددا من الأدباء والشعراء من العهد الحفصي ألفوا رسائل في علم القريض مثل أحمد النقاوسي صاحب « الروض الأريض في علم القريض » وأحمد الخلوف صاحب « تحرير الميزان لتصحيح الأوزان»، واعتنى عدد من الأدباء بشرح قصيدة ابن الحاجب المسماة « المقصد الجليل في علم الخليل » شرحها محمد بن جابر الوادي آشي وشمس الدين محمد الصفاقسي وأحمد النقاوسي. ولئن لم يتجدد الشكل والمحتوى جذريا فان هنالك بعض السمات الخاصة من حيث الصياغة وطول النفس في القصيدة والنظم بلغة متينة عامة والمبالغة في الافادة من الصور التقليدية العريقة. ونلاحظ أن التراكيب التراثية تتكشف بوضوح ويدل انسجامها في الأسلوب العام على مهارة الشاعر في السيطرة الفنية على الصناعة الشعرية، وتشف عن هضم للتراث البلاغي القديم. لقد بالغ الشاعر عامة في تكثيف هذه التراكيب والتحليق بجناحين من الخيال الفني العريق. وتتجلى هذه النزعة عند أغلب الشعراء خاصة محمد بن القويع وأحمد

1) ابن الطواح : سبك المقال : ص 133-143. وشرح هذه الرسالة ابن رشيد شرحا سماه « وصل القوادم بالخوافي في شرح كتاب القوافي »، انظر: حازم القرطاجني: منهاج البلغاء : ص 89 .

الخلوف اللذين استغلا الوسائل البديعية المعهودة فتتهاطل الصور البلاغية في شعرهما ويشتد الترنم بسبب ترداد بعض الصيغ والأساليب والمفردات المتجانسة .

ومن الظواهر في الشعر في العهد الحفصي تفنن الشاعر في بعض الأساليب الشعرية نذكر منها لزوم ما لا يلزم والمعارضة العروضية وقلب القصائد وتخميس الابيات ونظم الألغاز والتشجير والموشحات والأزجال والاجازات الشعرية والاشتراك في نظم القصائد .

- لزوم ما لا يلزم : يتغنى أحمد بن الغماز بذكر اسم الجلالة في آخر كل بيت من قصيدته اللامية فيتجلّى منها فيض اشراقي، وهذه القصيدة من أطرف القصائد في الشعر الحفصي : من البسيط

يا صاحب الهم ان الهم منفرج * كم من أمور شداد فرج اللـــه
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الفاتح اللـــه
...اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى اللـــه
سلم الى الله فيما شاء وارض به * فالخير أجمع فيما يصنع اللـــه [2]

ولأحمد القلشاني قصيدة من اثنين وعشرين بيتا يستخرج من أوائل حروف أبياتها اسم الناظم يستغفر الله [3]. كما أن محمد بن الأبار التزم في معارضته لـ « ملقى السبيل » لأبي العلاء المعري جميع الحروف الهجائية في تأملاته في الحياة ومآلها وتقلباتها .

- المعارضات الشعرية : ازدهر فن المعارضة في الشعر الحفصي، ولنا أخبار عديدة عن شعراء ولعوا بالمعارضة لكن نصوصهم مفقودة، من ذلك معارضة محمد بن أحمد التجاني والد صاحب الرحلة لقصيدة حازم القرطاجني التي أولها :

---

2) المقرى : نفح الطيب : ج 4 ، ص 316-317 .

3) في شرحه للرسالة الموسوم بـ« تحرير المقالة في شرح الرسالة» : ص 225 رقم 6222 و6837، جزآن بدار الكتب الوطنية بتونس .

من الكامل

لم تـدر اذ سألتـك ما أسـلاكهـا * أبكـت أسـى أم قطعـت أسـلاكهـا ؟

وليس لنا من هذه المعارضة الا البيت الأول :

يا ساحـر الألحـاظ يا فتـاكهـا * فتيـا جـواز الصد مـن أفتاكهـا [4]

ولنا في رحلة التجاني معارضات إخوانية كثيرة [5].

– **قلب القصائد** : ذلك بصرفها عن المعاني التي أرادها أصحابها الى معان أخرى. واشتهرت في هذا المجال الفني قصيدة حازم القرطاجني « حديقة الأزهار وحقيقة الافتخار في مدح النبي المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه الأبرار » ضمنها معلقة امرئ القيس متصرفا في معانيها، مصدرا أعجازها بأشطار أخرى ، موطئا لها بمقدمة شعرية. وقد راجت قصيدة حازم اذ جاءت فيها أبيات الشاعر الجاهلي منسجمة مع المعاني الجديدة كأنها أصيلة فيها، غير مقحمة، مما يدل على مهارة صناعية في التضمين والتورية. وأول القصيدة المقلوبة : من الطويل

لعينيك قل ان زرت أفضل مرسل * « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل »

وفي طيبة فانزل، ولا تغش منزلا * « بسقط اللوى بين الدخول فحول »

ومما جاء فيهما :

نبي هدى، قد قال للكفر نوره * « ألا أيها الليل الطويل ألا انجل »

تلا سورا، ما قولها بمعارض * « اذا هي نصته ولا بمعطل »[6]

---

4) المقرى : نفح الطيب : ج 4 ، ص 148 .

5) انظر مثلا : ص 148-149 ، 172 ، 234-237 .

6) قال الشريف الغرناطي : « هذا البيت وما بعده نهاية في حسن التضمين لأنه صرف البيت عن المعنى الذي أراد امرؤ القيس الى معنى آخر شريف فحاز قصب السبق في هذا الباب ». انظر: رفع الحجب المستورة : ص 101، والقصيدة في : قصائد ومقطعات : ص 179-184، ديوان حازم : ص 89-96 .

ومن القصائد المقلوبة قصيدة أبي ابراهيم بن حسينة اجتهد فيها في التصرف في قصيدة لعبد الله التجاني فلم يغير منها غير قوافيها واسما اياها باسم صاحبها الأصلي (7).

– **تخميس القصائد** : أشرنا أعلاه (8) الى رواج تخميسات الشقراطسية، اذ تبارى عدد من الشعراء الحفصيين في تخميسها منهم ابن شباط وابن عربية وابن حبيش ورواج تخميسات قصائد دينية أخرى مثل « المنفرجة » لابن النحوى و « معراج المناقب » لابن أبي الخصال، كما أشرنا الى تأليف جمعت فيه تخاميس بيتين في المديح النبوي. وكان لهذه التخاميس تأثير كبير في الحياة الأدبية بتونس، خاصة تخاميس الشقراطسية، وكان تخميس ابن عربية سببا لدخوله البلاط الحفصي، وصار به الشاعر الأول عند أبي زكرياء الحفصي (9). وقد نوه بعض النقاد بتخاميس ابن حبيش الموسومة بالقرب الثلاث خاصة وأنه أتى بالأقسام فيها « في غاية التناسب كأنها نظم رجل واحد » (10) ، وجدد فيها من حيث افتتاحها بمواضيع تتلاءم مع غرض المديح النبوي (11) . ومن التخاميس الراجعة الى العهد الحفصي نذكر تخميس أحمد الرصافي التونسي لاحدى قصائد ابراهيم بن سهل الاسرائيلي (12) ولكنه تخميس ضائع .

– **نظم الالغاز** : عرف بعض الشعراء بنظم الألغاز منهم أبو زكرياء الحفصي، قال في لجام : من المتقارب

---

7) التجاني : الرحلة : ص 233-234 .

8) في فصل المدح النبوي : ص 599 .

9) التجاني : الرحلة : ص 376-377 ، وانظر أعلاه ترجمة ابن عربية رقم 31 .

10) العبدري : الرحلة : ص 51 .

11) المصدر نفسه، قال العبدري : « أما تمكنها فلأنه لما جرت عادة الشعراء بالافتتاح بالتغزل وطأ [ابن حبيش] بالإفتتاح بغيره بما ذكر من أن الوقت اللائق به التغزل هو عصر الشباب وأن اللائق بعصر الشيب هو ذكر الله والاقبال على الحمد له » .

12) البلوى : تاج المفرق : ج 2 ، ص 95-98 .

وما اسم له أحرف أربعة * وفيه غرائب مستودعه

فمن قال أول حرف لمن * تشكى الخمول فقد رفعه

وان زاد حرفا فخلق عظيم * كثير المضرة والمنفعه

ومقلوبه اسم لشيء متين * اذا أبصرته قلت : ما أمتعه

ويبقى اسم من بره واجب * فقد اقترف الاثم من ضيعه

ومقلوبه اسم لشيء عزيز * يهان ولا شيء الا معه [13]

وأيمن أبو البركات ألغز في مقص : من مخلع البسيط

نحن محبان ما رأينا * في الحب أشفى من العناق

فمن يحل بيننا نبادر * بقطعه خشية الفراق [14]

- **التشجير** : هو التفنن في تقديم أبيات من القصيدة في شكل أغصان شجرة، وتصور المجموعة شجرة مورقة الفروع، رسمت في اطار هندسي جميل، وقد ولع أحمد الخلوف بهذا الفن الذي له صلة بالخط والتصوير والتركيب البديع للحروف والكلمات، نجد منه نماذج مصورة في ديوانه الديني [15] ، من ذلك شجرة تحتوي على تسعة عشر بيتا حلى بها قصيدته « تحفة اللبيب وسلوة الكئيب » .

- **الموشحات** : لم يكن فن التوشيح غريبا عن الوسط الأدبي والثقافي بتونس في العهد الحفصي، اذ جاءه عن طريق الأدباء الأندلسيين النازلين بتونس

---

13) فك ابن راشد القفصي رموز هذا اللغز فقال : « مراده بأول حرف اللام، فاذا قال للخامل : لفقد أمره بالولاية ورفع منزلته، فان زاد الجيم جاء منه لج وان قلبه جاء منه جل، ويبقى بعد هذه الأحرف الألف والميم فيجيء منهما أم وهو قوله : « ويبقى اسم من بره واجب ». ومقلوب أم : ماء وهو يهان ولا عيش الا معه. ومقلوب الجميع : ماجل ». المرتبة العليا : ج 2 ، ص 149-150. نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس رقمها :171 ، 177 .

14) ابن حجر : الدرر الكامنة : ج 1، ص 460-462. وتذكر أم علي التجانية، انظر أعلاه الترجمة رقم 86 .

15) أرقامه 13283 ، 13429 ، 17943 بدار الكتب الوطنية بتونس .

مثل أبي المطرف بن عميرة صاحب الموشحات التي « تطرب قبل التلحين »[16] وعلي بن سعيد[17]. واشتهر من أدباء العهد الحفصي أحمد الخلوف بنظمه للموشحات ونشر عدد منها[18] وما زال بعضها مخطوطا[19].

- **الزجل** : كان ابن خلدون أول من دافع من النقاد عن الشعر العامي وشهد له بالبلاغة في محله. وقد ذكر أنه استحدث بتونس فن من الزجل اسمه « الملعبة »، لكنه لم يورد منه أي نموذج[20]، بينما أورد في فصله الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار في القرن السابع نماذج من الأشعار العامية من ذلك قصيدة من ثلاثين بيتا أنشدها سلطان بن مظفر بن يحيى من الذواودة أحد بطون بني رياح قالها وهو معتقل بالمهدية في سجن أبي زكرياء الحفصي، وثلاثة وعشرون بيتا من قصيدة قالها خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي الليل يفاخر بها الشاعر شبل بن مسكيانة بن مهلهل من أولاد مهلهل ونماذج طويلة من شعر شبل وعلي بن عمر بن ابراهيم من بني عامر أحد بطون زغبة[21]. ومن الشعراء من كان « له نظم جيد في المعرب وإحكام للطريقة الزجلية، يتصرف أظرف تصرف على الطريقة الصوفية » مثل أبي محمد الطيبرى[22]. ونلاحظ أن أولياء تونس في هذا العهد كانوا يميلون الى النظم بالعامية مثل أحمد بن عروس الذي ما زالت له عينات رائجة على الألسن.

---

16) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 45 .

17) استقى ابن خلدون فصله عن الموشحات من تأليف لابن سعيد في الموضوع .

18) في كتاب « الدرارى السبع »، بيروت 1876 .

19) هناك اختيار منها، انظر فهرس مخطوطات برلين : ج 7 ، ص 105-106 ، أعداد مذكورة في الملاحظة عدد 3 في الترجمة أعلاه رقم 192 .

20) المقدمة : ص 536 .

21) المصدر نفسه : ص 515-520 .

22) عن رحلة ابن رشيد، نسخة مرقونة لدى الدكتور محمد الحبيب بلخوجة، وانظر عن الشعر العامي في العهد الحفصي : مجلة « الفكر » السنة 8 ، العدد 10 ، جويلية 1963 ، السنة 9 ، العدد 7 ، زفريل 1964، ص 70 مجلة « المحفل » التونسية : سنة 1981 ، العدد 1 .

- **الاجازة الشعرية** : ولع الأدباء في العهد الحفصي بفن الاجازة خاصة اذا اجتمع عدد منهم في مكان، وذلك أن يبدأ شاعر بقول شطر بيت ويطلب من آخر أن يكمله. ولنا نماذج عديدة في هذا الفن، من ذلك إجازة محمد بن الحباب لعدد من زملائه الأدباء و أرادوا إثارته فأكمل البيت الثاني بسببهم [23]، وإجازات جماعة من الشعراء لنظم ابن رشيد في نزهة خلال بساتين تونس قاموا بها في ربيع الأول من سنة 684 [24].

وتقتضي الاجازة الشعرية سرعة البديهة في نظم الشعر في أي عروض وروي مقترحين. وكان المستنصر يتفكه بطلب الاجازة من شعرائه مختبرا بذلك قدرتهم على الارتجال وحسن الخاطر، فكان بعضهم يغتنم الفرصة فيلوح للسلطان بما يبغيه أو يرمي اليه، فنرى أحمد الغساني يجيزه اجازة قضى بها على حياة خصمه أحمد اللياني [25]. ونرى بعض الأدباء لا يوفقون في إجازتهم مما يؤدي بهم الى سوء المصير مثلما وقع لعلي بن عصفور [26]. ويمكن أن نعتبر المخاطبة بالشعر مما يقتضي جوابا على نفس الوزن والقافية من الاجازة الشعرية ، مثل بيتي المستنصر خاطب بهما أبا بكر بن سيد الناس، لكن ما أسعفته بديهته فأدركه أبو المطرف بن عميرة وأجاب عنه [27] ، كما يمكن عد البيتين اللذين نظمهما أبو الحسن علي التجاني حين طلب منه الزيادة على بيتين كتبا في أستار الروضة النبوية الشريفة نوعا من فن الإجازة الشعرية [28] .

---

23) الزركشي : تاريخ الدولتين : ص 87 ، ابن القاضي : درة الحجال : الترجمة عدد 565 ، والترجمة أعلاه رقم 124 .

24) ابن رشيد : الرحلة : ج 2 ، ص 386-388 .

25) الزركشي : الكتاب المذكور : ص 36 ، ابن قنفذ : الفارسية : ص 125 ، والترجمة أعلاه رقم 32 .

26) الزركشي : الكتاب المذكور : ص 39 .

27) المقرى : نفح الطيب : ج 4 ، ص 110 .

28) العبدري : الرحلة : ص 205 . وفي « مجمل تاريخ الأدب التونسي » لحسن حسني عبد الوهاب، ص 184، ثلاثة أبيات أنشدها صبيان هي لأبي بكر بن حبيش. وانظر مثالا آخر في الاجازة الشعرية في : ابن سعيد : القدح المعلى : ص 55 ، وفيه تحريف لكلمة جابية الى خابية .

– **الاشتراك في نظم القصائد** : وهو يقرب من فن الإجازة الشعرية، لنا قصائد عديدة اشترك في نظمها شعراء عديدون فجاءت كأنها من نظم رجل واحد، من ذلك قصيدتان اشترك في نظمهما أحمد بن يامن وعلي بن سعيد وأحمد الغساني في بعض مجالس أنسهم، فجاءت متطابقة « تطابق المثالث والمثاني »[29]، وقد ساعد على هذا التطابق جو الأنس والمرح والغناء الذي أنشئت فيه. ومن القصائد التي شارك في تدبيجها شاعران اثنان قصيدة وجهت الى والي قابس ابن مكي في طلب نوع من العصافير له صوت جميل، وهذان الشاعران هما أبو عبد الله محمد بن همشك وأبو عبد الله محمد التجاني، والقصيدة من الطويل في ثلاثة عشر بيتا أولها :

وأورق منسوب الى غابة قابس * بقلبي من ذكراه جنوة قابس
يردد فوق الباسقات هديله * فيرقص أعطاف الغصون الموائس[30]

وفي رحلة التجاني نماذج عديدة من قصائد نظمها أكثر من واحد بالاشتراك[31].

خاتمة : تفنن الشعراء في استعمال ألوان المحسنات البديعية في شعرهم طلبا للابتكار المعنوي، فعمدوا الى تزيين نظمهم بها وأكثروا من الجناس والطباق ورد الأعجاز على الصدور والتطريز وهو أن تقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن فيكون فيها كالطراز في الثوب. ومن وجوه البديع التي استثمروها التورية والتمثيل بالنحو والصرف والحديث. ونكتفي بضرب أمثلة فيها استدلال بهذه الفنون. قال عمر التجاني ناصحا : من السريع

29) ابن سعيد : القدح المعلى : ص 54 .
30) المصدر نفسه : ص 105-106 ، فسر المحقق الأورق بنوع من البعير، ونفهم من السياق أن الشاعرين يصفان طائرا، والتجاني هو محمد بن ابراهيم .
31) انظر مثلا ص 228 ، 294-303 .

سـرك ان أودعتـه ثـانيـا * فاعلم بـأن قـد أن أن تفشيَـه
لأن مـا أضمـر فـي حـالـة الإ * فـراد تستخـرجـه التثنيـه [32]

وقال أبو الزهر الحميري التونسي متغزلا بغلام : من المنسرح

ينظر في النحـو وهـو مجتهـد * لكنـه لا يقـول بـالعطـف
قـد علـم العيـن فـي محـاسنـه * تقـارن الابتـداء بالـوقـف [33]

وقال أبو الطاهر بن سرور القرشي منوها بمدرس النحو : من مخلع البسيط

مـدرس النحـو مـل اليـه * فهـو لـدى الحسـن سيبـويـه
وخـده المشـرق ابـن زهـر * والقـد منـه ابـن مـاسـويـه [34]

وفي التورية بالصرف قال أحمد اللياني مهددا أعداءه على طريقة الحجاج بن يوسف في خطبته حين قدم أميرا على أهل العراق : من المجتث

فـي أم رأسـي حـديـث * لسـامـع ليـس يبصـر
فـان تطـاول عمـري * وسـاعـد الجـد يظهـر
أرى جمـوعـا صحـاحـا * ومـذهبـي أن تكـسـر [35]

ولم يخل ديوان أحمـد الخلوف من التـمـثيل بكثـيـر من الفنون والتـوريات المستـحبة، من ذلك هذه التورية اللطيفة الواردة فـي أول قصيـدته « تحية المشـتاق

---

32) الصفدي : الوافي بالوفيات : ج 21 ، 22 ، 23 ، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، رقم 13321 ، ص 16، وأوردهـا العبـدري فـي رحلتـه (ص 263) باختـلاف في البيت الأول : « سرك ان أعلمته ثانيا » .
33) الصفدي : الكتاب المذكور : ج 3 ، ص 264 .
34) ابن الطواح : سبك المقال : ص 127-128 .
35) لكنه انتهى نهاية فاجعة : انظر أعلاه ترجمته رقم 33 .

ونتيجة الأشواق »وهي تورية مناسبة لمقام المديح النبوي : من البسيط

لرسل الصدغ في خديه آيات * قامت بتصديق دعـــواه الأدلات

وللعذار حديث صح مسنـــده * اذ أخرجته على الخد الروايات

الباب الثاني

النثر

تمهيد : ان النصوص النثرية الراجعة الى العهد الحفصي والمتوفرة لدينا قليلة جدا . فلئن وجدنا عددا كبيرا من عناوين التآليف النثرية في تراجم الأدباء والعلماء والكتاب الحفصيين فما بقي منها نزر من كثير يصلح أن نستقرئ منه ما وصل اليه النثر في العهد الحفصي خاصة من حيث المستوى الفني ريثما يكشف البحث والتنقيب عن المخطوطات على الجديد. لقد نشطت حركة التأليف خلال حكم آل حفص في مختلف الفنون والآداب، في اللغة والنحو والصرف والفقه والتاريخ والرحلة والترجمة الذاتية والطب والحكمة والانشاء الفني، فألف الأدباء والنحاة والفقهاء ورجال التصوف الكتب، وقد دعت حركة التدريس بمختلف الجوامع المنتشرة بتونس والمدارس المحدثة في عهد بني حفص المدرسين الى وضع الشروح والمختصرات التي كانت أساسا لتلقين العلم وبث المعرفة للطلبة. كما أن بعض الخلفاء الحفصيين قد فتحوا أبواب مكتباتهم العظيمة لبعض العلماء والأدباء فألفوا لهم كتبا في الأدب والتاريخ وعلم السياسة قد ضاع جلها لكن بقي منها عناوينها في المكتبات العامة والخاصة. ولم تغب حركة التصوف طيلة العهد الحفصي فجادت لنا بمؤلفات لم تزل الى اليوم متداولة على الألسن .

الفصـــــــل الأول

الـــرســائـــل

– **الرسائل الديوانية** : رسم القلقشندي في « صبح الأعشى »[1] ميزات المكاتبات التي كانت تصدر عن البلاط الحفصي بتونس الى أمراء مصر فذكر أنها تبتدئ بعبارة من فلان أمير المؤمنين بن فلان أمير المؤمنين ان كان قد ولي الخلافة وهكذا عن آبائه أيضا ويدعو لهم ثم يذكر المبعوث اليه : « الى أخينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ثم يذكر الموضوع اثر البعدية ثم تختم المكاتبة .

وأورد القلقشندي نموذجا من هذه المكاتبات متمثلا في نسخة من رسالة وجهها السلطان أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر الى السلطان المصرى الملك الظاهر برقوق صحبة شيخ الموحدين مرفقة بهدية من الخيل [2]، يعلمه فيها بانتصار أسطوله البحري على النصارى في معركة « غودش » ويصف فيها وقائع هذا الانتصار [3] .

وتقوم الرسالة على السجع وتوازن الجمل والاقتباس من الأمثال العربية والعديد من المحسنات البديعية وتتضمن كثيرا من الاشارات التاريخية وتعبر عن الود للسلطان المصري. ونلمس في تصوير بعض وقائع المعركة مقدرة قصصية ترتكز

---

1) ج 8 ، ص 79 .

2) المصدر نفسه : ص 79–84 ، ولي أبو العباس أحمد الحكم من سنة 772 الى سنة 796 ، وشهد حكمه غزوة صليبية على المهدية تغلب فيها السلطان .

3) ليس لمعركة «غودش» خبر في كتب التاريخ ، ونعلم من هذه الرسالة أنها جزيرة كان استفحل منها شر النصارى فغزاها أبو العباس وانتصر. الا أن المصادر التاريخية تذكر في أحداث سنة 792 خبر نزول النصارى بالمهدية وانصرافهم عنها مهزومين بعد شهرين ونصف الشهر من نزولهم (الفارسية : ص 188 ، تاريخ الدولتين : ص 112–113) ، وقد فصل ابن خلدون خبر هذه الواقعة في تاريخه (ج 6 ، ص 399–400 ، طبعة بيروت بالأوفسات عن طبعة 1284). ونتساءل هل الجزيرة المذكورة هي جزيرة « رودس » ؟

على السرد وتتبع الجزئيات وتحليل النفسيات ما يدل على تضلع كبير في فن الكتابة. لكننا لا نعلم اسم كاتب هذه الرسالة هل هو أبو زكرياء يحيى بن أبي اسحاق ابراهيم بن وحاد الكومي الذي قال عنه ابن قنفذ صاحب « الفارسية » : « له في كتابة السر قلم وجيز بليغ مع حسن الخط والسمت »[4]، أم هو واحد من الكتاب العديدين الذين تولوا الكتابة لأبي العباس أحمد قبل ابن وحاد وبعده والذين ذكرهم ابن قنفذ منهم أبو عبد الله بن أبي الفضل قاسم بن أبي زيد عبد الرحمان بن حجر وأبو علي الحسن بن أبي الفضل القسنطيني [5] ؟

وتبقى هذه الرسائل نموذجا من الرسائل الديوانية [6]، يمكن اعتبارها وثيقة عن جهاد السلطان أبي العباس أحمد ضد النصارى وتبرز وجها من العلاقات الثقافية والسياسية بين تونس ومصر في العهد الحفصي .

نبذة من هذه الرسالة :

وكان من جزائرهم [النصارى] المعترضة شجا في حلوق الخطار، ومتجشمي الأخطار، وركاب البحار، من الحجاج والتجار، جزيرة « غودش » وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غربانا نعقت عليهم بالمنون، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون، وشحناها عددا وعُددا، واستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مددا، فسارت تحت أجنحة النجاح اليها، وتحوم الى أن رمت مخالب مراسيها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الاسلام لاباحتها، بهت الذي كفر، وود الفرار والحين يناديه أين المفر ؟ فلما قضى السيف منهم أوطاره، عمدوا الى ما خطاه السيف من والد وولد، ومن أخلد الى الأرض من رجالهم عن

4) الفارسية : ص 178 .
5) المصدر نفسه : ص 178-179 .
6) هي من الرسائل النادرة التي لم تتلفها يد الزمان، وقد أورد ابن الأبار في « اعتاب الكتاب » نموذجين من رسائل ابن نخيل الأولى في وقيعة شينو من نواحي سبتة سنة 604 والثانية في وقيعة وادي أبي موسى سنة 606 (ص 237-239 ، 240-245) الا أنهما يعتبران من الرسائل الموحدية، انظر :

- Levi-Provençal : Documents inédits d'histoire almohade.

المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد، فجمعوا منهم عددا ينيف بعد الأربعمائة على الأربعين، وجاؤوا بهم في الأصفاد مقرنين، وامتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين، وانقلبوا فرحين، بما آتاهم الله مستبشرين، الى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين .

– **الرسائل السلطانية** : يتميز عادة ما يواجهه الأدباء من رسائل الى السلاطين بالافراط في الصناعة، فيكثر الكاتب من استعمال السجع والمفردات الغريبة والتضمين للأمثال، ولنا أمثلة موجهة الى بعض سلاطين بني حفص تتصف بحسن الوصف والتنميق، وجودة الحبك والتصوير، من ذلك تهنئة كتبها أبو المطرف بن عميرة الى المستنصر بمناسبة ايصاله فرعا من الحنايا الى جامع الزيتونة يمكن عدها آية فنية في البلاغة وحسن البيان رغم أنها لا تصل الى درجة رسائله النثرية التي بكى فيها الأندلس بلهجة مثيرة تنضح بالحزن والأسى على أيام الجزيرة المفقودة الخوالي. وقد أورد الغرناطي شارح المقصورة الحازمية بعضا من فصولها مشيرا الى أن أبا المطرف هو أحد البلغاء الذين أكثروا من مكاتبة المستنصر لتهنئته بقيامه بهذه الخدمة ومما جاء في رسالة أبي المطرف [7] : « وكان المسجد الجامع استسقى لقومه، واقتضى حق أمسه ليومه، ورأى ما يوعيه بسبب الخلق، من سيل الودق، ريما نضبت ثميلته، وكذبت مخيلته، فشفع للظماء، في معين الماء، واستغاث يد الجود، للركع السجود، ولجأ في اسباغ الطهور، لسابغ الكرم المشهور، فلم يلبث أن سمع النداء لبيك، وهذه السقيا تنتهي اليك، تسيل حواليك لا عليك » .

ومن الرسائل السلطانية رسالة وجه بها محمد بن أحمد التجاني والد صاحب الرحلة الى السلطان أبي يحيى زكرياء بن اللحياني جوابا على رسالة وردت منه، تناهى فيها في مدح الخليفة الحفصي وتأكيد ولائه له، وشكر أياديه عليه والتعبير عن عرفانه بالجميل لهذا السلطان حامي عائلة التجاني. وتفيض هذه الرسالة بالفرح،

---

7) رفع الحجب المستورة : ص 77 ، وانظر : محمد بن شريفة : أبو المطرف أحمد بن عميرة : ص 179–220 . وانظر رسالة لأبي المطرف في : المقري : نفح الطيب : ج 1 ، ص 305 ، ابن سعيد : القدح المعلى : ص 47–48 .

ورغم ما فيها من سجع فتبدو كأنها جاءت عفوية، في صيغة خطبة : « يا أيها الملأ ، انه ألقي الي كتاب كريم، ويا شاكري الأيادي اني لا أبرح عن شكر هذه اليد ولا أريم الخ ... » [8].

- **الرسائل الاخوانية** : يمثل تبادل الرسائل الاخوانية بين الأدباء والأصدقاء أو الأقارب في العهد الحفصي عنصرا مهما في الحياة الأدبية فيحرص الأديب بأسلوب يتسم بالاكثار من السجع وحشر الغريب وتضمين الأمثال والتوريات اللطيفة على التعبير نحو مراسله عن لواعج الحنين ومشاعر التوق وعواطف الود والاخاء والوفاء. كانت تسود الصلات بين بعض الأدباء حركة أدبية نشيطة اذ كانت المراسلات متواصلة بينهم، ومن حسن الحظ أن بقي لنا جانب منها محفوظا في عدد من المصادر مثل« القدح المعلى » لابن سعيد ، ورحلة التجاني وكتاب « التعريف » لابن خلدون. لنا نماذج مما كتبه أحمد الغساني لبعض أصدقائه [9] وأمثلة عديدة مما تبادله عبد الله التجاني مع أفراد من أسرته وأصدقاء له من الأدباء كما أن ابن خلدون قد ضمن ذيله لتاريخه رسائل اخوانية عديدة وصلته من ألمع رجال الأدب في عصره أمثال لسان الدين بن الخطيب [10] وابن زمرك [11] وأبي الحسن علي بن الحسن البني قاضي الجماعة بغرناطة [12] ، وعينات مما بعثه الى ابن الخطيب مظهرا تعلقه به واخلاصه له مفيدا اياه عن أخباره بتونس. قال ابن خلدون : « فأجبته عن هذه المخاطبات وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته، فلم

---

8) التجاني : الرحلة : ص 194-196. وجاءت هذه الرسالة مصدرة بشعر مدحي .

9) القدح المعلى : ص 12-13 ، 14-16 .

10) التعريف : خاصة ص 112-124 ، 130 ، 137-139 ، 158-164 ، وأثبت ابن خلدون كتاب ابن الخطيب لابن الأحمر حين حل الأديب الأندلسي بالمغرب الأقصى « لغرابته ونهايته في الجودة »، وانظر أيضا : ص 167 ، 224-231 ، (الرسالة الأخيرة من ابن الخطيب الى ابن خلدون يهنئه بمولود) .

11) المصدر نفسه : ص 282-298 ، ضمن ابن خلدون مقتطفات من رسالة ابن زمرك اليه وهي رسالة طويلة بدأها صاحبها بقصيدة من 76 بيتا .

12) المصدر نفسه : ص 298-301 ، والرسالة مدرجة في : ص 301-302 .

يكن شأوه يلحق » [13]، ورغم أنه تفادى من السجع فان رسالته اليه لم تخل منه كما أنها لم تخل من مدح مراسله والتزلف اليه وتقديم تقرير عن الوضع السياسي بافريقية والمغرب الأقصى والمشرق، وقد استقى أخبار هذين من الحجاج، وحرص ابن خلدون على بيان رغبته في أن يزوده ابن الخطيب ببعض تصانيفه فيرسلها اليه بتونس[14].

ولعبد الله التجاني كتاب « نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين » [15]، جمع فيه مخاطباته لهذا الشاعر السبتي ومجاوبات هذا الأخير له، وقد تبارى المراسلان في التفنن في النثر والشعر للتعبير عن أسمى عواطف الود والمحبة. وقد مهر أبو الفضل التجاني ابن عم الرحالة في تدبيج الرسائل اذ تتميز بحسن الاتساق وبلاغة التعبير والتوفق في اختيار الكلمات رغم غرابة بعضها ، وتفيض بعبارات الود والوئام، وكلمات المحبة والاخلاص والتعلق بالمخاطب في رقة ولطف بالغين ينمان على أخلاق عالية. ولنا منها نماذج عديدة، منها ما كتبه الى والده من تونس الى طرابلس[16] صدرها بقصيدة في الحنين اليه ووصف عذاب فراقه، وبدأ القسم المنثور بالتحية والسلام والدعاء له، ثم أخذ يصف حاله ويفضي بحنينه اليه في أسلوب يعتمد المحسنات البلاغية من سجع وتشبيه وتضمين واقتباس واستشهاد بالشعر وجناس، ثم أعلمه بأنه لم يتصل منه الا برسالتين اثنتين وصفهما بأنهما مكتوبتان « بعبارة أرشق من جمع الشتيتين، ولفظ أحلى من القرب بعد البين » [17]. وتفيض رسالة أبي الفضل الى والده بالحب البنوى اذ يبدي الكاتب حزنه وشجاه لبعد أبيه عنه ويختم بتمني عودته الى تونس بعد أداء فريضة الحج فيجتمع اذ ذاك الشمل ويلتئم الصدع.

---

13) المصدر نفسه : ص 130 .

14) المصدر نفسه : ص 130-137 .

15) كتاب ضائع، انظر : ص 164 من رحلة التجاني، يقول : « فوجهت اليه من تونس من المخاطبة والمجاوبة ما ملأ سفرا جمعته وسميته « نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين » .

16) محمد الحبيب بلخوجة : أبو الفضل التجاني كما صوره ابن رشيد : ص 274-276 .

17) المرجع نفيسه : ص 275 .

وقد بالغ أبو الفضل في التفنن في رسائله الى ابن عمه عبد الله، فكان يحملها بالأمثال والاشارات البلاغية والمحسنات البديعية من طباق ومقابلة وتصريع وترصيع، وقد ضمنها عبد الله في رحلته، وهي تخلو من البسملة والحمدلة والبعدية وتبتدئ بالشعر، لكن لنا رسالة منه الى ابن عمه ابتدأ القسم النثري منها بالتسبيح وتمجيد الاله [18]، وكان عبد الله لا ينفك عن مجاوبته « مقررا لإدامة الود ومتبرما بامتداد أمد البعد » [19] ومعبرا عن احتدام الحنين في نفسه الى الحاضرة. وتدل هذه الرسائل المتبادلة على قوة الروابط العائلية في أسرة التجاني [20].

ولنا رسالة أرسلها أبو الفضل الى صديقه الأديب الوزير أبي عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم جوابا على رسالة منه [21]، استهلها بهذه الفقرة، وهي نموذج لهذا النوع من النثر المسجع المستعمل في الرسائل الاخوانية في العهد الحفصي : «لله رسائلك الغر، وكلماتك التي يخجل منها الدر، لقد خلت من الفصاحة سحرا، وأفاضت من البلاغة بحرا، وأشرقت ملامحها، ونطقت بالسحر الحلال خواتمها وفواتحها، فإياتها باهرة، وآياتها ظاهرة، ومحاسنها تخلب الألباء [...] أشهد أنك أعلى الكتبة مرتبة، وأفرس الطلبة اذا اعتقلت يمناك قصبة، وانك أطولهم باعا، وأكملهم انطباعا، وأسلمهم طبعا، وأسلسهم قافية وسجعا » .

---

18) التجاني : الرحلة : ص 288-292 .

19) المصدر نفسه : ص 285 .

20) توجد نماذج أخرى في المصدر نفسه : ص 221-224 ، 225-227 ، 281-284.

21) محمد الحبيب بلخوجة : الفصل المذكور : ص 280-281 .

الفصل الثاني

الخطب والوصايا وكتب الأمثال والحكم

- **الخطب** : ازدهرت الخطابة الدينية في العهد الحفصي اذ تعددت جوامع الخطبة بافريقية خاصة بتونس العاصمة واشتهر علماء كثيرون بالخطابة كالامام محمد بن عرفة وتلميذيه أبي القاسم بن ناجي ومحمد الرصاع ، كان لهم تأثير كبير في مجتمعهم، وكانوا يعلمون الناس في خطبهم سلوك المسلم المثالي بالاعتماد على القرآن والحديث النبوي الشريف، وكانوا اشتهروا بذلاقة ألسنتهم، ومتانة ثقافتهم الدينية والأدبية، ويمكن أن نتخيل لهجة القائهم لخطبهم، ونبرات أصواتهم وهي تتلاءم مع المعاني الواردة فيها. يحدثنا ابن ناجي عن تأثير خطبه في النفوس حين سمي اماما بجامع الزيتونة بالقيروان وكان عمره يومئذ احدى وعشرين سنة، قال : « فخطبت بالخطبة المعلومة من ورقة بيدي، فلما كانت الجمعة الثانية ألفت خطبة وخطبت بها فبكى الناس منها وفرح بذلك شيخنا المذكور [أبو القاسم البرزلي] فرحا شديدا لما اعلموه، وأمرني ان أذكرها فقلت له بعضها وأنا مستح، وتماديت هكذا أخطب في كل جمعة خطبة جديدة، وربما أكررها عن بعد فلا يفهم عني أني كررت نحوا من أربعة أعوام » [1] .

الا أن المصادر لم تحفظ لنا خطبة واحدة من خطب ابن ناجي ولا من غيره تعود الى هذا العهد ما عدا خطبتين لابن خلدون سجلهما لنا في « التعريف »، احداهما قالها حين ولي وظيفة الحديث بالمدرسة الصرغتمشية بالقاهرة في المحرم سنة 791 [2] ، والثانية أنشأها وخطب بها في المدرسة الظاهرية بالقاهرة حين عين بها لتدريس المالكية وافتتح بها سلسلة دروسه [3]. وتبتدئ هاتان الخطبتان بحمدلة

1) ابن الدباغ وابن ناجي : معالم الايمان : ج 1 ، ص 29 .
2) ص 323-341 .
3) ص 313-322 .

وتصلية مسجعتي المفاصل على حرف واحد، وقد أثبتهما صاحبهما في كتابه متباهيا بمقدرته على رصف الجمل وتنميقها بالسجع وزخرفتها بسائر المحسنات البديعية، متفاخرا بزاده اللغوي والبلاغي، معتمدا بما أظهره فيهما من طرق اسناده في رواية الموطأ عن كبار علماء تونس مما يدل على طول باعه في المذهب المالكي، ويعلق ابن خلدون على أحد ذينك المجلسين بقوله : « وانفض ذلك المجلس، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب، وأخلص النجي في ذلك الخاصة والجمهور » [4].

– **الوصايا** : خلف بعض الأدباء وصايا أوصوا بها أبناءهم تتضمن قواعد للسلوك في المجتمع ومع الله. وللوصايا صلة بأدب المواعظ والحكم والأمثال اذ تحث على حسن الأخلاق والتحلي بجملة من الشيم، غير أن للوصايا التي لدينا والتي كتبها أدباء مشهورون هم أبو زكرياء الأول الحفصي ومحمد الظريف ومحمد بن عبد الله القلشاني قيمة أدبية فنية واضحة، فقد كتبت بأسلوب خال من التعقيد والتنميق، يتصف بالايجاز وجزالة العبارة يتخللها السجع السليم والمحسنات البلاغية العفوية. أولى هذه الوصايا وصية أبي زكرياء الحفصي لولي عهده وابنه أبي يحيى زكرياء [5]، رمى بها إلى تكوين ابنه سياسيا وأخلاقيا وتمكينه من مبادئ عملية لممارسة الحكم من بعده أملتها عليه تجربته الطويلة وقد وصل الى أوج قوته السياسية فاتسعت حدود مملكته وجاءته البيعة من الأندلس وأقصى المغرب، وتكشف لنا عن مدى حنكته السياسية ومراعاته للصالح العام، واعتباره تقوى الله أساس الحكم والنجاح. ولم يكتف بوضع حكم بل حاول تبيان فوائدها التطبيقية فافترض حالات خاصة يمكن أن تعرض للسلطان وقدم حلولا لها كي يستضيء بها ابنه وقت الشدة يقول له : « ومتى فاجأك أمر مقلق، أو ورد عليك نبأ مرهق، فريض لبك، وسكن جأشك، وارع

4) ص 341 ، وللسلطان أبي يحيى بن اللحياني الحفصي مجموعة خطب منبرية سماها « روضات الجنات » يقول عنها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب انها طبعت على الحجر في الهند، انظر تقديم رحلة التجاني : ص 27 م .

5) توفي أبو يحيى في 646 في حياة والده، ونجد نص هذه الوصية في تاريخ ابن خلدون : ج 6 ، ص 597 ، واقتطف منها حسن حسني عبد الوهاب فقرات في « مجمل تاريخ الأدب التونسي » : ص 187–188 .

عواقب أمر تأتيه، وحاوله قبل أن ترد عليه وتغشيه، ولا تقدم اقدام الجاهل ولا تحجم احجام الأخرق المتكاسل، واعلم أن الأمر اذا ضاق مجاله، قصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذي التجارب من نبهائهم، ثم الاقدام عليه، والتوكل على الله في ما لديه » .

وهذه الوصية تحث على التقوى، وتدعو الى الخير، وتضع التقرب من الرعية والاتصال بها واتباع الحق وانصاف المظلوم أساس كل نجاح في الحكم. وهي تحذر من سفك دماء المسلمين بالباطل وتدعو لاستعمال العقل فيما يحزب من الأمور، والتمعن في المشاكل قبل فضها، والالتجاء الى الشورى، والحزم في التنفيذ، والحسم في الحكم، والتواضع في الحق، ومحبة الايثار، والترفع عن المادة. وبالجملة فهي تضبط قواعد أساسية في معاملة الجيش والحاشية والرعية خاصة معاملة كل طبقة بما يليق بها وعدم الاغترار بأقوال المتزلفين الكاذبين وتفقد أحوال الرعية ومراقبة العمال والقضاة، ورفع الأذى عن الناس والاستماع الى المتظلمين والذب عن المسلمين عامة [6] .

أما شكلا فهي وصية تدل على أن الترسيل في تونس في العهد الحفصي قد أرسى أساسه أبو زكرياء، فقد جاءت الاستعارات عفوية، وورد سجع المفاصل لطيفا بدون افراط، وهي تقوم على الأسلوب الشرطي وصيغ الأمر والنهي التي تساعد على أداء مضامين الحكمة، وتعتمد على القرآن والسنة معينا للحجج ومنوالا للإنشاء الأدبي .

أما وصية محمد الظريف [7] فهي وصية مليئة بالمواعظ والنصائح التي تخص الانسان في صلاته مع نفسه ثم ربه ثم الناس. وهي توصي بمجموعة من المبادئ الأخلاقية تمثل الدستور الذي التزمه محمد الظريف في حياته مؤتسيا بسيرة

---

6) أنشأ القديس لويز التاسع وصية لابنه قبل أن يموت بقرطاج، ولعله اطلع على وصية أبي زكرياء لولي عهده، مترجمة اليه .

7) شرح الزركشي هذه الوصية بتونس، نسخة مبتورة الأول، ونشر النص المرحوم عثمان الكعاك في ذيل تحقيقه لكتاب « الأدلة البينة النورانية » لابن الشماع : ص 206-208 .

الرسول الكريم. وهي تدور حول ثلاثة محاور :

1 – طاعة الله في أوامره والتأدب معه ومع أوليائه والتقوى إلى حد القنوت والتهجد والتصوف .

2 – التحلي بالصدق واللين واللطف، وبمجموعة من الصفات مثل الانتباه والتفكر والتصبر والتبصر والحفظ للعلم ونشره وعدم التهور، ولزوم الصمت والوقار، وتطهير النفس من الأحقاد والابتعاد عن الطمع والتكبر والهوى والتواكل والشكوى للناس والركون الى الغير .

3 – الرفق بالناس والتواضع لهم وتبجيل كبيرهم ورحمة صغيرهم واختيار الأصحاب المتدينين الخاشعين ومساعدة الفقير والجائع واليتيم .

قال الظريف : « كن جوال الفكر، جوهرى الذكر، كثير العلم، عظيم الحلم، جميل المنازعة، سريع المراجعة، واسع الصدر، ضحكك تبسما، واستفهامك تعلما، مذكر الغافل، معلم الجاهل، لا تؤذ من يؤذيك، ولا تخض فيما لا يعنيك، لا تشمت بمصيبة أحد »[8] .

وهذه الوصية لا اسفاف في معانيها، بليغة في لغتها تدل على تمكن في النثر، ورغم وجازتها فهي مفعمة بالآراء والأفكار. ولئن تشبها نظرة تنصح بقلة المخالطة للبشر فهي تنزع الى الدعوة الى حسن التعامل معهم، وتتميز بموقف اسلامي واقعي، نستشف منها رقة هي وليدة حضارة بلغت أوجها في عصر المؤلف .

أما الوصية الثالثة فهي لمحمد بن عبد الله القلشاني أوصى بها ابنه أحمد، اقتصر فيها على ايراد آية كريمة وحديث شريف وحكمة مأثورة [9] ، وتتمحور هذه

---

8) اعتمدنا على مخطوطة من مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 18801 .

9) أحمد بابا : نيل الابتهاج : ص 291–292 ، وأوصى بها ابنه حين تولى القضاء بقسنطينة. انظر ترجمتها أعلاه رقمي 161 و 170 .

النصوص المستشهد بها حول حسن الخلق وكيفية الفوز بمحبة الناس واكتساب صداقتهم. قال القلشاني : « عليك بتقوى الله سرا وعلانية، وأوصيك مع ذلك بآية وحديث، أما الآية فقوله تعالى : « وقولوا للناس حسنا » والحديث قوله عليه السلام : « حسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل ». وأوصى صديق صديقه وقد ولي أمر الناس بقوله : « صن أذنيك عن أخبارهم تسلم من عداوتهم، وأوف لذوي الحقوق حقوقهم تستجلب مودتهم، وشارو ذوي العقل والدين يقل عتبهم عليك، وتجاوز عن جفوة ذي الهفوة يقل ندمك، وتأن في الحكم يقل خطؤك، واصبر على ما تكره تصل لما تحب، والسلام » .

ونشير الى الوصية التي أوصى بها محمد بن عرفة في مرضه الذي توفي به، لكنها لم تأت في صيغة فنية بليغة [10]. وكل هذه الوصايا تدعو الى التمسك بالتعاليم الروحية التي نصت عليها الآيات القرآنية والسنة النبوية وأقوال الحكماء .

- **كتب الأمثال والحكم** : وجدنا تآليف عديدة جمعت فيها باقة من الحكم والأمثال والأشعار المتعلقة بالسلوك الانساني الحكيم منها تآليف ابراهيم بن عبد الواحد بن أبي النور في سياسة الملوك والأمراء والوزراء والوجهاء ألفه لأبي يحيى أبي بكر[11] ، وتآليف في الحكم ألفه محمد بن محمد المشذالي البجائي للسلطان أبي عمرو عثمان في ذي القعدة سنة 866 [12] ، ويحتوي الكتاب على أحاديث نبوية ونبذ من كلام الصحابة والتابعين والخلفاء والصوفيين والحكماء، وجملة حكم من كلام العرب. وقد اختار المؤلف لكثير من الشخصيات الإسلامية قولات مأثورة حكيمة تمت إلى السلوك الانساني عامة وسلوك الملوك والسلاطين خاصة. ومما يتعلق بهذا العنصر تآليف ابن عربية « جوامع الكلم النبوية » وتآليف أحمد النقاوسي « حديقة الناظر في تلخيص المثل السائر » لكنهما تآليفان ضائعان .

---

10) الرصاع : الفهرست : ص 170 مكرر أول ومكرر ثان. قالها لأبي عبد الله محمد البطرني في خشوع كلي .

11) منه نسخة بالأسكوريال رقم 719 .

12) منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 5090 ، وهي نسخة مذهبة بخط جميل باعداد من المؤلف، من سبعين ورقة، من المكتبة الأحمدية تحبيس أحمد باي .

الفصـل الثـالـث

المختصـرات والشــروح

من أبرز الظواهر الثقافية في العهد الحفصي وجود المختصرات والشروح، وتهمنا هذه الكتب من الناحية اللغوية والأسلوبية أي من ناحية الصياغة المضمون فيكون الاختصار والشرح من العمل الأدبي الصرف، ونجد من بين المختصرات والشروح ما هو من الميدان الأدبي واللغوي والبلاغي مثل كتب « حديقة الناظر في تلخيص المثل السائر » و« تلخيص رسالة أحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور » لأحمد النقاوسي و« تلخيص المفتاح للقزويني » لبرهان الدين الصفاقسي، أما الشروح فنجد الكثير منها تتعلق ببعض الأعمال الأدبية تهتم فيها باللغة والأسلوب والمعنى، وكانت تقدم حسب المستويات لتلقين الطلبة مادة موضوع الدرس وشرحها لهم.

– **المختصرات** : ألف كثير من المصنفين كتبا لخصوا فيها أمهات كتب في التاريخ والنحو والبلاغة والفقه والحديث والتوحيد والمنطق والفلسفة، كانت تحظى باقبال الطلبة والعلماء عليها فلخصت لطولها وتفرع المسائل بها ليسهل تناولها وتداولها. وكان التلخيص يعتمد عادة التهذيب والتنقيح وحذف الجزئيات والاستطرادات وأحيانا اضافة ما يتم أو يتضح به المعنى. وقد لاقت هذه المختصرات رواجا كبيرا، ويتبين من تراجم الأدباء والعلماء أعلاه أن لكثير منهم تآليف من هذا النوع لكننا لم نعثر الا على القليل منها، وقد عرف بعض الأدباء والعلماء بولعهم بالاختصار أمثال عبد الله بن عبد البر وأحمد النقاوسي وابراهيم بن عبد الرفيع وأحمد حلولو القروي ومحمد الرصاع ملخص « فتح الباري في شرح صحيح البخاري » لابن حجر، وعنوان اختصاره دال على الطريقة المتوخاة فيه، وهو : « التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح ». وقد عمد بعض الأدباء والعلماء الى اختصار تآليفهم الأصلي أكثر من اختصار، مثلما فعل ابن شباط في « صلة السمط »، اختصره اختصارين متوسط وصغير. وقد تفنن ابن عرفة في اختصار القول في تآليفه العديدة الى حد التعمية، وقد جاءت مكثفة جامعة للمسائل،

ملمة بالحقائق. الا أن أهم تلخيص هو كتاب محمد بن أبي الحسين، رتب فيه « المحكم » لابن سيده مختصرا اياه، لكنه تأليف ضائع .

ورغم رواج هذه المختصرات والاعتماد عليها في تدريس العلوم وفنون الأدب واللغة والنحو بتونس، فقد عقد ابن خلدون في « المقدمة » فصلا من الباب السادس لذمها وانتقادها، اذ ذهب الى أن هذه المختصرات مخلة بالتعليم، مضرة بالطلبة، رأها تسبب « تخليطا على المبتدئ بالقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد »، وتحدث شغلا كبيرا على المتعلم « بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت » [1] .

ورغم هذا الانتقاد فقد ولع ابن خلدون بانشاء مختصرات عديدة فلخص كثيرا من كتب ابن رشد [2] ، وله « لباب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » لفخر الدين محمد الرازي المعروف بابن الخطيب، وهو مختصر في علم الكلام [3]، قدمه ابن خلدون بقوله : « فاختصرته وهذبته، وحذو ترتيبه رتبته، وأضفت اليه ما أمكن من كلام الامام الكبير نصير الدين الطوسي، وقليلا من بنيات فكري وعبرت عنها بـ « ولقائل أن يقول » وسميته « لباب المحصل » فجاء بحمد الله رائق اللفظ والمعنى، مشيد القواعد والمبنى » [4]. الا أن انتقاد ابن خلدون لهذا النوع من التأليف يمكن أن يدخل في اطار حملته ضد ابن عرفة المشتهر بمختصراته العديدة .

– **الشروح** : ازدهر فن الشرح في العهد الحفصي، ولنا عناوين عديدة لشروح في كثير من الفنون : الأدب نثرا وشعرا، النحو، الفقه والحديث، لكن جلها ضائع فلم نستطع أن نطلع على شرحي البردة لأحمد بن القصار وعبد الرحمان بن خلدون وشرحي مقامات الحريري لعبد الله بن عبد البر ومحمد الطبلبي ، وكذلك

---

1) ص 470-471 .

2) عبد الرحمان بدوي: مؤلفات ابن خلدون : ص 39 .

3) المرجع نفسه : ص 33 ، وقد جرد ابن خلدون كتابه من التفاريع والزوائد .

4) المرجع نفسه : ص 36 .

شرح « بانت سعاد » لكعب بن زهير قام به عمر الوشتاتي في مجلدين ، وشرح أحمد بن القصار لشواهد « المقرب » لابن عصفور، وتفاسير محمد الأبي ومحمد بن عقاب وأحمد البسيلي للقرآن الكريم [5]، وخاصة شرح محمد بن القويع لديوان المتنبي، لكن بقي لنا شرح ابن شباط لتخميسه للشقراطسية وشرح الرصاع لوصية محمد الظريف وشرح محمد الزركشي لقصيدة محمد بن أبي بكر الدماميني الاسكندري في مدح السلطان أبي العباس أحمد الحفصي، وعنوانه : « بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني » .

أما شرح ابن شباط لتخميسه للشقراطسية الموسوم بـ« صلة السمط وسمة المرط » فهو يتألف من أربعة أسفار من الحجم الكبير، وهو الشرح الكبير الباقي من ثلاثة شروح على تخميسه، فقد الآخران وهما المتوسط والمختصر[6]، وفي هذا الشرح نتبين طريقة المؤلف التعليمية في تفسير المشكل وتوضيح الملتبس وتقديم المعلومات الأدبية والبيانية والنحوية والتاريخية وغيرها . ويرتكز هذا الشرح على خمسة أركان : اللغة والمعاني والنحو والبديع وما يتصل بالشعر من وزن وعروض وقافية، يقول ابن شباط : « اعلم أن كل كلام مركب فانظر فيه ما يتعلق بأربعة أطراف : الأول في شرح معاني ألفاظه، الثاني في شرح معانيها التي أفادها التركيب، الثالث في حكم تركيبها على وفق لغة العرب، الرابع في هيئة تراكيبها، ان كان ذلك في نثر فلا اشكال، وان كان في نظم فلا بد من طرف خامس وهو النظر في الوزن والعروض والقافية » [7] .

ويحرص ابن شباط على الايضاح والضبط والتيسير على القارئ، فيقدم له المعلومات من كل نوع ليستغني عن أمهات الكتب ويحاول أن يبسط له المفاهيم المعتاصة ويقدمها له في ثوب جديد. يمكن اعتبار هذا الشرح معينا ثرا لكثير من المفاهيم البلاغية، ومعجما لغويا ثريا يضم الى ذلك دروسا في التاريخ والجغرافيا

---

5) تفسير الأبي في 8 مجلدات، انظر : أحمد بابا : نيل الابتهاج : ص 287 .

6) منه الأجزاء التالية بدار الكتب الوطنية بتونس : 3208 ، 3691 ، 5605 ، 5606 ، 18564 ، 18565 .

7) ص 26 ب من مخطوط رقم 5606 .

والفقه الاسلامي اذ ينقلب الجزء الرابع الى دروس في الفتوح الاسلامية، الا أن أهم ما احتواه الشرح مفاهيم عديدة في الخلق الفني والابداع الانشائي، ونظريات في النقد والأدب والبلاغة والشعر. فهو يفسر ظاهرة التجنيس البلاغية وأمثالها من الظواهر بأن البديع ليس ضروريا ولا واجبا ولكنه للتحسين والتزيين مثل « النقط للعروس »، يقول : « وأما البديع فانه يجري مجرى التحسينات والتزيينات والنقط للعروس فليس وجوبه كوجوب تخير اللفظ والمعنى، واعلم أن ملاك الأمر مبني على الطبع معينا سهل على المحاول ما يرومه وان كان صعبا » [8] .

ولابن شباط رأي طريف في الانشاء والابتكار الأدبي يقول : « والمنشىء للشيء المخترع له، وذهب بعض الحكماء الى أن أصل الانشاء الكتابة بين أيدي السلاطين ثم يستعمل في غير ذلك، وعندي أن أصل الانشاء الاختراع، ومنه أنشأ الله تعالى الخليقة لانه اخترعها على غير مثال، ثم صار يقال : أنشأ فلان قصيدة وأنشأ رسالة اذا اخترعها، وقد يخص الانشاء تارة بالكتابة دون القريض وهذا اصطلاح وأما باعتبار أصل الاشتقاق فيطلق الانشاء على الجميع » [9]. وفي « صلة السمط » دقة تحر وأمانة علمية وتحقيق للسنين والاسماء واحتراز في الادلاء ببعض المعلومات [10] مما يدل على مكانة المؤلف في مجال الدقة والايضاح والضبط وتحديد المفاهيم واستقصاء المعاني وتفصيلها .

أما شرح الزركشي لقصيدة الدماميني فهو شرح لغوي نحوي صرفي فلسفي بلاغي عروضي، اعتمد فيه المؤلف تتبع كل بيت كلمة كلمة ثم يلخص معنى البيت العام ويختم أخيرا ببيان البديع فيه. وأهم ما في هذا الشرح مقدمته الخاصة بفضل الشعر والتعريف بناظم القصيدة وخاتمته التي أرخ فيها للسلطان أبي عمرو عثمان ولبعض جوانب من الحياة العلمية في عهده [11] .

---

8) ص 12 أ من مخطوط رقم 5605 .

9) ص 18 أ من المصدر نفسه .

10) انظر خاصة ص 8 ب من نسخة رقم 5605 من المكتبة العبدلية .

11) انظر أعلاه الترجمة رقم 191 .

ومن أهم الشراح في العهد الحفصي أبو القاسم بن ناجي عرف بكثرة شروحه منها شرح على كتاب ابن الجلاب في الفقه [12]، وشرح على « التهذيب » للبراذعي[13] وشرحان على « المدونة » لسحنون، الشتوي في أربعة أسفار والصيفي في سفرين [14] ، وشرح على رسالة عبد الله بن أبي زيد القيرواني، وهو من أشهر الشروح على « الرسالة » الى اليوم [15] .

ومن أهم الكتب التي شرحت شروحا عديدة في العهد الحفصي كتاب ابن الحاجب في فروع الفقه المالكي، شرحه محمد بن راشد، ومحمد التريكي، وعمر القلشاني، ولم يقتصر هذا الشارح في شرحه على المضمون الفقهي بل تجاوزه للبحث في الألفاظ أفرادا وتركيبا[16] .

ونلاحظ أنه لم يطبع من كل هذه الشروح سوى شرح الرصاع لحدود ابن عرفة، وهو يميل الى التفسير اللغوي والتعليق النحوي في لغة سهلة غير معقدة تدل على ما وصل اليه النثر في العهد الحفصي من نصاعة ووضوح وترسل، وشرح الأبي الوسوم بـ « اكمال اكمال المعلم في شرح صحيح مسلم » وتتضح فيه ثقافة الشارح الواسعة الشاملة للنحو واللغة والشعر الى جانب الحديث والفقه. ويتضمن أخبارا ثقافية عديدة خاصة عن مجالس السلطان أبي الحسن المريني بتونس وعن حياة بعض شيوخه وبعض علماء العهد الحفصي القدامى وفي هذا الشرح اشارات الى كتب كثيرة في الفقه والحديث والأدب نثرا وشعرا. وقد بين الشارح طريقته بمقدمته قال : « وبعد فان هذا تعليق أمليته على كتاب مسلم ضمنته كتب شراحه الأربعة المازري وعياض والقرطبي والنووي مع زيادات مكملة، وتنبيه على مواضع من كلامهم مشكلة، ناقلا لكلامهم بالمعنى لا باللفظ حرصا على الاختصار، مع ما في ذلك من

---

12) منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 5808 .
13) منه نسخة بنفس المكان رقم 1726 .
14) أحمد بابا : نيل الابتهاج : ص 223 .
15) انظر أعلاه الترجمة رقم 162 .
16) أحمد بابا : الكتاب المذكور : ص 196-197 .

بيان ما قد يعسر فهمه من كلام بعضهم لتعقيده في محله من كتابه لا سيما من كلام عياض » .

ويرمز الأبي الى أسماء شراح صحيح مسلم بالرموز ويشير بلفظ الشيخ الى شيخه ابن عرفة. ويقدم كتابه بهذه الجملة التي نلمس فيها رائحة الثقة بالنفس : «وأرجو أن المنصف لا ينكر أن الكتاب جاء عالي الكعب، سهل المأخذ » [17]. وتبدو في هذا الشرح النزعة التعليمية بجلاء، وهي ترتكز على الاختصار والتبسيط وتقديم المعلومات في نثر فني من السهل الممتنع .

وأخيرا فان هذه المختصرات والشروح تمثل الزاد المعرفي للطلبة، يرمى بها الى نشر العلم والمعرفة في أوساط الراغبين في التعليم والتثقيف من جهة والى حفظ التراث من الضياع، وهي عنصر هام من عناصر الحركة الثقافية والحياة الأدبية بتونس العاصمة في العهد الحفصي .

---

17) يبتدئ شرح الأبي في الكتاب المنشور من ص 47 من ج 1 ، انظر أعلاه الترجمة رقم 158 .

الفصل الرابع

السيرة الذاتية والفهارس

السيرة الذاتية : أنتج العهد الحفصي نصين في السيرة الذاتية من أندر النصوص في هذا الغرض في الأدب العربي القديم، أولهما هو أطول نص في السيرة الذاتية في الأدب العربي، وثانيهما كتبه صاحبه ليعرف القراء كيف وصل الى طريق الحق الاسلامي، ويشبه « المنقذ من الضلال » للغزالي .

أما الأول فهو كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا »، ولو لم يكتبه ابن خلدون لبقي الكثير من مراحل حياته يكتنفه الغموض ولجهلنا كثيرا عنه وعن أجداده ومشائخ عصره، فكان وثيقة مهمة بالدرجة الأولى عن المؤلف والحياة الأدبية في عصره وخاصة عن تكونه الأدبي والفكري وعن علاقته بالعدد الوافر من الشخصيات العلمية والأدبية والسياسية في عصره بتونس والأندلس والمغربين الأوسط والأقصى والمشرق .

وقد صور ابن خلدون في « التعريف » كل مراحل حياته بأسلوب استعراضي، سردي خلا من الزخرف اللفظي، ورسم فيه ذكرياته في عهد الشباب وما اكتنف حياته من ملابسات وظروف ملحا خاصة على وجهين : الوجه العلمي تأليفا وتدريسا ومساهمة في الحياة الأدبية، والوجه السياسي وما تولاه من وظائف في دواوين الانشاء وفي القضاء وسجل ما مني به من عداوات بتونس أو المغرب أو الأندلس وما أثاره كل مرة في نفوس منافسيه من البغض والحسد ودواعي الفتنة [1]. ولم يخل نص « التعريف » من رونق أدبي ضاف بما فيه من تصوير لخلجات النفس وما يدور في الوجدان من خواطر وأفكار وأحلام. وقد كتبه في آخر حياته ملحا على بعض الأحداث التي رآها تكتسي أهمية خاصة، فنظم ذكرياته بطريقة أظهر فيها الحصاد

1) من هذه الشخصيات أبو عبد الله محمد بن مرزوق بالمغرب ولسان الدين بن الخطيب بالأندلس ومحمد بن عرفة بتونس ورجال عديدون بالقاهرة، لكن ابن خلدون لم يظهر لهم عداوته .

الايجابي في حياته. لكنه لم يعطنا كل شيء ولم يرسم السلبيات مثلما نجده في السيرة الذاتية التي كتبها مواطنه الافريقي بقرطاج القديس أوغستان (354 م – 430 م) في « الاعترافات » .

وقد غلب ابن خلدون المضمون على الشكل، الا أنه لم يقدم لسيرته بمقدمة، ابتدأ مباشرة بذكر الأصل والاسم والأجداد، ثم انتقل الى بيان دور سلفه بافريقية وعلاقتهم ببني حفص. وكان مؤرخا لعائلته ولنفسه، التزم المفاخرة بهما والدفاع عنهما. ثم أفضى الى ذكر نشأته ومشيخته وحاله، ففصل لنا القول في الدروس التي تلقاها على مشائخه، مما أفادنا كثيرا عن الجو العلمي والأدبي الذي نشأ فيه. وكان ابن خلدون يولي العلم والأدب مكانة مهمة في حياته ودورا أساسيا في تكوين شخصيته الفذة، يقول : « لم أزل منذ نشأت، وناهزت مكبا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته »[2]. ولم يفتأ ابن خلدون في طلب العلم حين انتقل الى المغرب من أجل الخدمة لدى أحد الملوك المغاربة فألح على تسجيل عكفه على « النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس »[3] حتى حصل منهم على البغية واستوفى على أيديهم تكونه .

وصور لنا ابن خلدون طموحه السياسي وفسر تأجج نفسه بتوقه للمعالي بـ«طغيان الشباب»[4]. وكان ما انفك يود العودة الى مسقط رأسه كلما اضطربت به الأمور وتأزمت حالته. وكثيرا ما تباهى بنفسه وفكره وقلمه، وأحيانا لا يخفى الغلو والتضخيم، يقول مصورا احتفال السلطان أبي عبد الله بن أبي بكر سلطان بجاية به حين نزل بها سنة 766 : « فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي وأركب أهل دولته للقائي، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي، وكان يوما مشهودا، ثم وصلت الى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل دولته بمباكرة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت

---

2) التعريف : ص 57 .
3) المصدر نفسه : ص 61 .
4) المصدر نفسه : ص 80 .

جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة الى تدريس العلم أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك » [5] .

وقد ضمن ابن خلدون سيرته الذاتية نصوصا أدبية وافرة، نثرية وشعرية له ولعدد من مشاهير معاصريه أمثال أبي القاسم الرحوي التونسي ولسان الدين بن الخطيب وأبي عبد الله بن زمرك، ورغم شعوره بأنها ليست من غرض تأليفه فانه برر تضمينها بقيمتها الأدبية وذلك لطغيان حسه الأدبي وحسن ذوقه النقدي، كما أنه ضمن سيرته تفاصيل عن بعض الأحداث السياسية في عصره أكمل بها معلوماتنا التاريخية .

وكان لابن خلدون غرضه من هذه السيرة التي انتهى من كتابتها في فاتح سنة 797 ، في سن مرتفع، بعد حوالي عشرة أعوام من اتمامه للمقدمة، بعد حياة طويلة قضاها في الارتحال وتقلد المناصب ومعاناة المحن مثل الغربة والسجن والعزل وفقده لأهله وولده الذين غرقوا وهم في طريقهم اليه من تونس، وقد صور تأثير هذا الحدث الأخير في نفسه بهذه العبارة وقد طرأ عليه في ظرف سيء : « ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد وصلوا من المغرب في السفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » [6]. وكأن ابن خلدون كتب سيرته بتأثير من أزماته النفسية أراد أن يسلي نفسه ويعزيها عما لقيه من الشدائد في حياته الماضية. ولعل دافع الانعزال عن المجتمع المصري هو الذي دفعه أخيرا الى أن يرجع الى الماضي يحييه ليعيش فيه من جديد بأفراحه وأحزانه، ولا تخفى في غضون السيرة لهجة التعالي على الأحداث والاعتداد بمواقفه ازاء الأشخاص والوقائع الجارية في حياته .

---

5) المصدر نفسه : ص 104-105 ، افتخر بشعره ونثره خاصة بالكلام المرسل الذي انفرد به عن سائر الكتاب حسب قوله. (المصدر نفسه : ص 72) .

6) التاريخ : ج 7 ، ص 455 ، من طبعة 1284، وقد أثبت ابن خلدون نص سيرته الذاتية في آخر تاريخه، ونشرت مفردة مرتين .

أما النص الثاني من صلب السيرة الذاتية في العهد الحفصي فهو لعبد الله الترجمان، فقد خصص فصلين من كتابه « تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب » ليحدثنا عن نفسه، وعن كيفية اسلامه ووصوله الى تونس واغداق السلطانين الحفصيين أبي العباس أحمد ثم أبي فارس عزوز عليه الأموال والوظائف. حدثنا عن أصله ونشأته وتعلمه النصرانية في ميورقة وغيرها من المدن، وقص علينا قصة معرفته لدين الحق، وذلك أن راهبا مسنا كشف له أن دين الاسلام هو الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحفزه الى الرحلة الى بلاد الاسلام بعد أن زوده بالمال، فاختار تونس وقصدها عن طريق البحر، وذكر لنا في عبارات سلسة وأسلوب قصصي ممتع أطوار هذه المغامرة التي أوصلته بين يدي أبي العباس أحمد ليعلن اسلامه أمامه في ملإ من النصارى، وصور لنا صدى اسلامه وسطهم وما دار بينهم من حديث حول هذه الحادثة، قال : « وتشهدت شهادتي الحق بمحضر النصارى فصلبوا على وجوههم وقالوا : ما حمله على هذا الا حب التزوج، فان القسيس عندنا لا يتزوج. وخرجوا مكروبين محزّونين » (كذا). وذكر لنا الترجمان تفاصيل عن حياته بتونس، من ذلك راتبه اليومي وزواجه وما أعطاه له السلطان بمناسبة دخوله بزوجه المسلمة وكيف حفظ اللسان العربي في سنة واحدة وتوليته قيادة البحر والترجمة، ثم حكى مساعي بعض القساوسة لرده الى دين النصرانية واغرامه بالمال والجاه لكنه كان ثابتا في اسلامه ولم يرتد، بل خصص الفصل الثالث من كتابه الى الاحتجاج للإسلام وتقويض قواعد المسيحية وأفرد بابا « في ثبوت نبوة نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم بنص التوراة والانجيل والزبور وتبشير الأنبياء ببعثته ورسالته وبقاء ملته الى آخر الدهر » .

– **الفهارس** : من التآليف التي لها علاقة قوية بكتب السيرة الذاتية وتشترك معها في اتخاذ الذات محورا للحديث واسناد الخطاب الى ضمير المتكلم، هي كتب الفهارس، لكنها تخص مرحلة من مراحل الحياة الخاصة هي مرحلة النشأة والتكون العلمي وطلب المعرفة، وتتعلق جملة باستعراض الأساتذة والكتب التي أخذت عنهم بأسانيدها بإيجاز. ولعدد من الأدباء والعلماء في العهد الحفصي فهارس لكنها ضائعة ولم يبق منها سوى النزر القليل، وهي شهادات دقيقة ومباشرة ذات قيمة

علمـيـة وأدبيـة لا تنكر، تكشف لنا كيف كـان يتكون الأديب والعـالم بتـونس في ذلك العصر. من هذه الفهارس نذكر فهرست مـحمد بن جابر الوادي آشي وفهرست محمد الرصاع. ولكل من هذين المؤلفين طابعه وطريقته الخاصة في فهرسته. ألف ابن جابر الوادي آشي كتـابه في قسـمين، خـصص الأول منهـما لأسـمـاء شيـوخه وتـرجم لهم ترجمات وجيزة وذكر تآليفهم، ويبلغ عددهم 265 شيـخا و 13 امرأة، وخصص الثاني للكتب التي حصلها أولها القرآن الكريم ثم كتب الحديث والمغازي فتآليف الأدب فكتب النحو والصرف، وفي الجملة 235 أثر من الآثار الفكرية والأدبية .

أما فهرسة الرصاع، فقد أفاض فيه صاحبه الحديث عن نفسه وعن مشائخه والوسط العلمي والأدبي بتونس في عـصـره، فقد وسع فـيه من اطار الفـهرست الى تناول تراتيب البلاد التونسية ومعاهدها العلمية وتصوير العلاقات فيها بين المشـائخ أنفسـهم وما بين المشـائخ والطلبة. وقد اتـخذ تـحريره لفـهرسـته مناسبة لرسم بعض ملامح من حياته وتأثير والده وبعض مشائخه في نفسه، وقد حشر في تـأليفه كثيرا من الملاحظات العلمـيـة والنوادر والنتف، وضـمنه تأمـلات في الحـيـاة والدنيـا والناس. فهو سجل لأسرته ولنفسه ولتونس، هذه المدينة التي أعجب بها ورآها « بلدة عظيمة بها رجال كرام وشيوخ عظام »[7] ، ذات حـضـارة ومـجـد أثيل. لذلك رسم لنا بكل تفصيل وتدقيق الحياة العلمية بتونس مما جعل كتابه مصدرا نفيسا للحياة الأدبية والعلمية في العهد الحفصي خاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع اذ كان الفراغ من تأليفه سنة 886 ، قبل وفاة صاحبه بثماني سنوات .

7) الفهرست : ص 45 .

الفصل الخامس
أدب الرحلة

الرحلة نوع أدبي مهم من حيث دلالته الحضارية وافادته عن عقلية صاحب الرحلة والبلاد التي يصفها لنا والشخصيات التي يلتقي بها. وقد خلف لنا العهد الحفصي رحلة من أمتع الرحلات اذ كتبها الأديب بأسلوب طلي خال من التكلف، وأثراها بنصوص أدبية مختلفة شعرا ونثرا، فبدت نصا أدبيا مزيجا من النتف والطرف والملح والأخبار الطريفة. ولم يكتب التجاني رحلته مقررا وانما بث فيها ملامح من شخصيته، فأفادنا كثيرا عن صلاته الحميمة بعدد من زملائه الأدباء بتونس والمغرب خاصة من عائلته. وقد حفظ لنا عناوين عديدة لكتب ضاعت اليوم، وقدم منتخبات فائضة من كتب تاريخية وأدبية وفقهية ولغوية كثيرة، ولم يكتف بالنقل بل نراه يعلق وينقد وأحيانا يناقش ويجادل[1] .

قام التجاني برحلته من سنة 706 الى سنة 708 عبر افريقية منطلقا من تونس في ركب أبي يحيى زكرياء بن اللحياني وكان مراده التخلي عن الحكم بتونس لانحلال أمره فيها واستفحال قوة أبي يحيى أبي بكر في بجاية وسيره لفتح العاصمة الحفصية فشعر ابن اللحياني أنه سوف لا يقوى على رد الهاجمين من أسرة بني حفص فآثر الفرار مظهرا استرجاع جربة من أيدي النصارى، معلما أفرادا من حاشيته أنه يروم أداء فريضة الحج، وكان عبد الله التجاني من الناس القليلين الذين علموا بحقيقة الأمر « غير أن العامة ربما كان حصل لهم به شعور فكانوا يشيعونه ولا يتحققونه »[2] .

---

1) طبع نص الرحلة أول مرة بتونس سنة 1345 هـ / 1927 م عن المطبعة الرسمية في 283 صفحة، بتحقيق من أحد المستشرقين، واحتفظ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في طبعته بهذا النص متنا وتعاليق وزاد عليه مقدمة وفهارس .

2) الرحلة : ص 5 (طبعة حسن حسني عبد الوهاب) .

قدم التجاني رحلته أنها تقييد سجل فيه مشاهداته وأحوال البلاد التي زارها وطرقاتها والمسافات التي بينها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي ووصف معالمها القائمة وضمنها « ما تحسن المحاضرة به وتحصل الافادة »[3] مما كان يدور بينه وبين أصدقائه وبعض أقاربه الباقين بتونس من مراسلات شعرية ونثرية. وقد بدأ في الرحلة مباشرة بدون ذكر لفوائد الأسفار ولا تدبيج مقدمة أدبية طويلة مكتفيا بالحمدلة والتصلية.

حدد التجاني الخروج من تونس عن طريق البر يوم الثلاثاء 14 جمادى الأولى 706، وكانت المرحلة الأولى رادس حيث أقام ثلاثة عشر يوما، مر بعدها الى حمام الأنف فالوطن القبلي وهكذا حتى وصل الى طرابلس في ركب ابن اللحياني ثم رجع الى تونس تاركا السلطان ينتظر ركب هدية أبي يعقوب المريني الى ملك الشرق ليتوجه معهم، وقد اعتذر بسبب مرضه، فكانت رحلته 975 يوما أو عامين وثمانية أشهر وأياما. وتختفي أخبار أبي محمد عبد الله التجاني بعد عودته الى تونس، بعد أن طوح أبو يحيى أبو بكر بعرش أبي ضربة بن أبي يحيى بن اللحياني، وقد ختم التجاني رحلته بقصيدة قافية من الكامل ذات 35 بيتا نظمها بطرابلس، ضمنها معاني التوبة والندم على حياته الماضية والتوسل بأعتاب النبوة، كأن الرحلة كانت فاصلا بين حياتين، حياة اللذة والتمتع بمتاع الدنيا ثم حياة التعبد والتقوى والصلاح : من الكامل

كم أنت في اللذات ذو استغراق * ونذير شيبك مؤذن بفراق
ولقلما يجدي المتاب اذا أتى * داعي الحمام وقيل هل من راق
... بادر الى التقوى بدار مسارع * وانهض الى الطاعات نهض سباق
واغنم من الأيام مهلة ساعة * قبل التفاف الساق منك بساق
... كل بها فان ومنقرض ولا * بقيا لغير الواحد الخلاق
واترك أناسا آثروا لذاتهم * واستمتعوا من دهرهم بخلاق

3) المصدر نفسه : ص 3.

رحلة عبد الله التجاني حسب المنازل والمراحل

السنـــة 706

الثلاثاء 14 جمادى الأولى : الخروج من تونس والوصول الى رادس والاقامة بها ثلاثة عشر يوما .

الاثنين 27 جمادى الأولى : مغادرة رادس والمرور بحمام الأنف ثم الدخول في جزيرة شريك (الوطن القبلي) مرورا بمنزل باشو فمنازل بني دلاج من بني هلال وأخيرا النزول بصلتان .

الثلاثاء 28 جمادى الأولى : الارتحال الى الفلاحين .

الخميس 1 جمادى الثانية : المرور بقرية المرصد والسبخة الجرداء والوصول الى هرقلة .

الجمعة 2 جمادى الثانية : الارتحال عن هرقلة والنزول بسوسة والاقامة بها ثلاثة أيام .

الاثنين 5 جمادى الثانية : النزول بين زرمدين وجمال .

الثلاثاء 6 جمادى الثانية : النزول بالجم .

الاربعاء 7 جمادى الثانية : الارتحال عن الجم والسير بالساحل والوصول الى أم الأصابع (الرقة) .

الخميس 8 جمادى الثانية : المرور ببرشانة وقصر زياد والوصول الى صفاقس .

الجمعة 9 جمادى الثانية : الارتحال عن صفاقس واجتياز طينة ونقطة والوصول الى المحرس .

السبت 10 جمادى الثانية : الارتحال عن المحرس والوصول الى صعيب ثم قصور المباركة .

الأحد 11 جمادى الثانية : النزول بوذرف .

الاثنين 12 جمادى الثانية : الارتحال عن وذرف ومشارفة غابة قابس ثم الوصول اليها والبقاء بها أربعة أيام .

السبت 17 جمادى الثانية : الانتقال من قابس الى قرية كتانة .

الأحد 18 جمادى الثانية : الوصول الى الزارات .

الاثنين 19 جمادى الثانية : الوصول الى وادي مجسر .

الثلاثاء 20 جمادى الثانية : النزول بمجاز الجرف .

الاربعاء 21 جمادى الثانية : الاجتياز الى جزيرة جربة .

الجمعة 23 جمادى الثانية : الانتقال الى حصن القشتيل بجربة والتجول في الجزيرة والاقامة بها 65 يوما .

الخميس 26 شعبان : الانتقال من جربة .

الثلاثاء 1 رمضان : الارتحال نحو قابس والنزول بسواني خلف الله .

الاربعاء 2 رمضان : الوصول الى تجفت .

الخميس 3 رمضان : الوصول الى الطواحين .

الجمعة 4 رمضان : النزول بكتانة .

السبت 5 رمضان : الوصول الى قابس والاقامة بها عشرة أيام .

الثلاثاء 15 رمضان : الرحيل عن قابس نحو توزر والحلول بحمة مطماطة والاقامة بها ستة أيام .

الاثنين 21 رمضان : الخروج من الحمة نحو نفزاوة والنزول بقرية مجزم .

الثلاثاء 22 رمضان : الوصول الى عيون رحال .

الاربعاء 23 رمضان : الوصول الى طرة احدى قاعدتي بلاد نفزاوة ، والبقاء بطرة ثلاثة أيام .

السبت 26 رمضان : الحلول قرب بشرى القاعدة الثانية لنفزاوة والبقاء بها الى انتهاء رمضان .

الخميس 2 شوال : التوجه نحو توزر والمرور بسبخة التاكمرت .

الجمعة 3 شوال : الوصول الى توزر والاقامة بها خمسة عشر يوما .

الجمعة 17 شوال : مغادرة توزر نحو قابس بعد قبض مجابي الجريد مرورا بطريق سبخة التاكمرت ومصادفة عاصفة رملية اقتلعت عددا من النخيل .

السبت 18 شوال : الرجوع الى بشرى .

الجمعة 24 شوال : العودة الى الحمة وهنا أظهر ابن اللحياني نية الحج ثم التوجه الى قابس .

الأحد 26 شوال : الوصول الى قابس ووداع الجيش لابن اللحياني ورجوعه الى تونس وبقاء عبد الله التجاني في ركب ابن اللحياني ليرحل نحو المشرق .

الاربعاء 29 شوال : الارتحال عن قابس والنزول بمنزل تبلبو .

الجمعة 2 ذي القعدة : المرور بزريق والنزول بمارث .

السبت 3 ذي القعدة : الوصول الى قرية أجاس .

الأحد 4 ذي القعدة : المرور بالعقلة .

الثلاثاء 6 ذي القعدة : الوصول الى غمراسن والاقامة بها أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما . وقد حاول التجاني صرف ابن اللحياني عن عزمه للحج عند سماع خبر فتنة ببرقة لجدبها واصابة السلطان بمرض ونظم هو والشاعر أبو ابراهيم بن حسينة قصيدتين يحثانه فيهما على الرجوع الى تونس .

السنة 707

الأحد 18 ربيع الأول : الارتحال عن غمراسن وعودة الأديب أبي ابراهيم بن حسينة الى تونس .

الاثنين 19 ربيع الأول : النزول ببئر العقلة .

الثلاثاء 20 ربيع الأول : النزول بماء القصار .

الاربعاء 21 ربيع الأول : النزول بماء أبي الخبر .

الخميس 22 ربيع الأول : النزول بماء تاذر .

الجمعة 23 ربيع الأول : الاقامة بظاهر وطن .

السبت 24 ربيع الأول : اجتياز زواوة الكبرى كوطين .

الأحد 25 ربيع الأول : اجتياز ولول فتليل .

الاثنين 26 ربيع الأول : اجتياز زواغة .

الثلاثاء 27 ربيع الأول : اجتياز بلماية .

الاربعاء 28 ربيع الأول : اجتياز منزل زنزور .

غرة جمادي الأولى : الوصول الى طرابلس .

خلال شهر ذي القعدة : وصول الوفد المشرقي من المغرب الى طرابلس .

الجمعة 26 ذي القعدة: الخروج مع هذا الوفد من طرابلس .

السبت 27 ذي القعدة : الوصول الى تاجورة .

الأحد 28 ذي القعدة : الوصول الى غافق .

الاثنين 29 ذي القعدة : الوصول الى وادي الرمل .

السنة 708

الاربعاء 1 محرم : الوصول الى عين تامدنت .

الخميس 2 محرم : الوصول الى عين فارة ، وهنا مرض عبد الله التجاني وانتظر الركب ابلاله فبقي خمسة أيام اضطر بعدها الى مواصلة السفر .

الثلاثاء 7 محرم : الوصول الى عين ودرس والبقاء فيها يومين ، هنا قرر التجاني الرجوع الى تونس بسبب مرضه .

الجمعة 10 محرم : وداع التجاني لابن اللحياني ورجوعه الى تونس مصحوبا بركب خاص .

السبت 11 محرم : نزول التجاني بحصن سلمة والبقاء به ستة أيام .

الجمعة 17 محرم : النزول بقاعة شنكس .

السبت 18 محرم : النزول بطرابلس والبقاء بها خمسة أيام .

الاربعاء 22 محرم : الخروج من طرابلس .

الخميس 23 محرم : النزول بزنزور يومين .

السبت 25 محرم : الوصول الى صرمان .

الأحد 26 محرم : حصن تليل .

الاثنين 27 محرم : قرية ولول .

الثلاثاء 28 محرم : وطن .

الاربعاء 29 محرم : بئر الزكرة .

الخميس 1 صفر : مورد خنافس ثم مورد بنبش الذئب .

السبت 3 صفر : الوصول الى وادي الزركين .

الأحد 4 صفر : النزول بقابس .

الخميس 8 صفر : الارتحال عن قابس وقد تخلى عنه الركب الخاص .

الجمعة 9 صفر : الوصول الى المحرس .

السبت 10 صفر : الوصول الى صفاقس .

الأحد 11 صفر : الوصول الى قرية بحجاي .

الاثنين 12 صفر : الوصول الى المهدية والاقامة بها .

الثلاثاء 13 صفر : الوصول الى سوسة .

الاربعاء 14 صفر : الوصول الى قرية الفلاحين .

الخميس 15 صفر : الوصول الى رادس .

الجمعة 16 صفر : الوصول الى تونس .

الفصــل الســـادس

كتـــب الجنـــس والطـــب

- **كتب الجنس** : من الظواهر الأدبية والفكرية في العهد الحفصي توفر عدد من الكتب الخاصة بالعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، وانصراف بعض الأدباء الى تأليف أكثر من كتاب في هذا الموضوع، سالكين مسلكا أدبيا متوخين جمع الأخبار الأدبية وتصنيفها حسب أبواب تتعلق بغرضهم بالاضافة الى الأبواب المفردة للباه في التآليف الفقهية وكتب الطب. فلأحمد التيفاشي تصانيف عديدة تتصل بالجنس هي :

1 – قادمة الجناح في آداب النكاح : أورد منه عبد الله التجاني في « تحفة العروس ومتعة النفوس » فقرات عديدة [1].

2 – نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب : ترجم الى الفرنسية وطبع فيها [2]، وهو كتاب غريب المنزع، عالج فيه صاحبه المظاهر الشاذة في العلاقات الجنسية كاللواط والسحاق والتعنيف، يحتوى على مقدمة واثني عشر فصلا قوامه النوادر والأخبار الواقعية في أسلوب قصصي يعتمد الحوار والتدقيق في الوصف والاستشهاد بالشعر.

3 – رسالة فيما يحتاج اليه الرجال والنساء في استعمال الباه مما يضر وينفع[3]. وهو كتاب مفقود .

---

1) تحفة العروس : ص 49 ، 66 ، 71 ، 99 ، 155 ، 187 .

2) لا يذكر المترجم العنوان العربي ولم يصف مخطوطاته ولم يذكر مظانها، انظر :

- al-Tifachi Ahmad : Les délices des coeurs, traduction René Khawam.

3) شك الدكتور احسان عباس في نسبة هذا الكتاب لمؤلفه بدون داع للشك، وقد نص عليه البغدادي في « هدية العارفين » : ج 1، 94 .

4 – رجوع الشيخ الى صباه في القوة على الباه : نفى الدكتور احسان عباس في مقدمة تحقيقه لـ«سرور النفس» لنفس المؤلف أن يكون للتيفاشي لأنه حسب رأيه « لا يشبه طريقته في التأليف »[4] ، ولا ندرى أين اطلع المحقق عليه، ورغم كل شيء فان نسبة هذا التأليف للتيفاشي القفصي دليل على شهرته في تصنيف هذا النوع من الكتب. الا أن الزركلي يستخلص من خبر وارد في « كشف الظنون » أن هذا الكتاب للمؤلف التونسي وترجم الى التركية[5] .

ولأبي علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي التونسي كتاب « موجبات أحكام مغيب الحشفة »، لقي رواجا كبيرا في عصره وكان من بواعث عبد الله التجاني على التفكير في هذا الموضوع وتأليف حاشية عليه، يقول : « كان شيخنا الامام أبو علي عمر بن محمد بن علوان الهذلي رحمه الله تعالى، قد ألف في ذلك تأليفا تهاداه الناس واستغربوه جمع فيه ما قال غيره واستدرك أحكاما كثيرة استخرجها بكثرة اطلاعه وقوة استطلاعه وتبحره في العلم واتساعه. وكان يزعم أنه لا يكاد يوجد حكم يشذ عن كتابه. وكنت حين قرأت التأليف المذكور عليه في شهر ذي القعدة سنة 702 رأيته قد أغفل أحكاما كثيرة حملني سن الحداثة اذاك وحب الظهور على أن وضعت فيها جزءا انتهت الاحكام المستدركة فيه الى خمسين حكما واتسعت فيه في ذكر الخلاف وبسط التعليل فجاء تأليفا تاما أيضا مستقلا ووقفته عليه فعظمه غاية التعظيم وتلا قول الله سبحانه وتعالى : وفوق كل ذي علم عليم »[6] .

وزاد عبد الله التجاني فألف كتابا آخر في غرض الجنس لكن تغلب فيه هذه المرة الطابع الأدبي واللغوي وهوكتاب « تحفة العروس ونزهة النفوس »[7]، رمى به

4) ص 26 .
5) الاعلام : ج 1 ، ص 259 ، وانظر أعلاه الترجمة رقم 16 .
6) تحفة العروس : ص 161 ، ووردت الفقرة مقتضبة في « نيل الابتهاج » : ص 194-195 ، وانظر : محمد مخلوف : شجرة النور الزكية : ص 205 ، الترجمة عدد 712 ، كحالة : معجم المؤلفين : ج 7 ، ص 314 .
7) طبع بمصر منسوبا الى صاحب الطريقة الصوفية التجانية، وفي هذه الطبعة كثير من التحريف خاصة في الأعلام، مثلا : الحصري – الحضري، ابن سعيد – أبو سعيد .

المؤلف الى الإفادة والإمتاع عن طريق الأخبار والنوادر والأشعار، فيكشف ما ينبغي أن يتحلى به المرء من الصفات في علاقاته الجنسية وما يستحسن من الأوصاف الخلقية والخلقية لاختيار الشريك المناسب. ويحتوي « تحفة العروس » على مقدمة وخمسة وعشرين بابا قدمها المؤلف بقوله : « رأيت أن أجمع من ملح أخبارهن ومستظرف نوادرهن وأشعارهن وما يستحلى من أوصافهن ويستحب من ألوانهن وأسنانهن ويستحسن من آدابهن ويمدح من خلقهن وأخلاقهن وما ينبغي للرجل أن يتخير لنكاحه منهن ، وبيان جمل من أحكامهن نبذا تحصل بين افادة العلم وامتاع النفوس »[8]. ومن أبواب الكتاب الحض على النكاح والانكار على من ترك النساء زهدا، وجلاء العروس عند ابتناء زوجها بها ودخولها على الرجل ليلا أو نهارا واستحباب اللهو في ذلك وما ينبغي للرجل والمرأة أن يتمثلاه عند الاجتماع وقبل الوقاع. وخصص التجاني الفصلين التاسع والعاشر للزينة والتطيب و « ما ينبغي للمرأة من ملازمة ذلك وأنه من أعظم الأسباب الموجبة لحظوتها عند زوجها » وما يستحب للرجل « من التهيؤ لزوجته كما يحب أن تتهيأ له والنهي عن اكراه المرأة الحسناء على تزوج الرجل القبيح والحدثة على المسن »، وخصص فصولا لذكر محاسن أعضاء المرأة وألوانها وأشكالها بالتفصيل والتدقيق، وفصولا أخرى للفنيات المتعلقة بالمباشرة الجنسية واستنباط طرق اللذة من مهيئات ووضعيات وصور، ولهذه الفصول الأخيرة غايات عملية تطبيقية. وقد أجاب المؤلف في كتابه على ما كان يدور من أسئلة في أذهان الرجال وطلاب اللذة الجنسية حول هذا الموضوع، فحاول أن يفسر كل ما يتعلق به من المراحل التمهيدية الى الظروف التي تساعد على اشعال الرغبة الجنسية في الطرفين. ويمكن أن نعتبر « تحفة العروس » دليلا جنسيا في عهد المؤلف، لكنه اصطبغ بمسحة أدبية واضحة، ولا نجد فيه افحاشا في القول، ينم على ثقافة التجاني الأدبية اذ يرجع الى كتب كثيرة كانت متداولة في عصره يستقى منها النوادر والطرف، خاصة من الكتب المغربية مثل « نور الطرف ونور الظرف » لابراهيم الحصري، و « قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور » لابراهيم الرقيق، و « قادمة

8) ص 2 من مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس رقم 16220 ، وقد اعتمدناها قبل أن نعثر على الكتاب المطبوع، وله نسخ أخرى مخطوطة بنفس المكان أرقامها : 2775 ، 8780 ، 18624 ، وترجمت بعض فصوله الى الفرنسية ونشرت سنة 1848 بمجلة : "Journal Asiatique" .

الجناح في آداب النكاح » لأحمد التيفاشي، و « الطالع السعيد » لعلي بن سعيد، كما أنه نص بنفسه على المنهج اللغوي الذي اعتمده فيه، وهو شرح المشكل من الألفاظ والتعليق على الأحاديث النبوية، وعرف بكتابه بقوله : « وليس كتابنا هذا في الحقيقة كتاب سمر وانما هو كتاب علم ونظر »[9].

وبالجملة فاننا نلاحظ أن الذوق الأدبي لا ينحط في هذا الكتاب إذ تتخلله الملح والمفاكهات والأشعار الغزلية الرقيقة ويمكن وصفه بأنه كتاب أدب ولغة ونقد[10]، وقد لاقى رواجا فتعددت نسخ مخطوطاته واختصر [11].

وعلى عكس هذا الكتاب، فان « الروض العاطر في نزهة الخاطر » الذي كتبه القاضي محمد النفزاوي بعد نجاح تأليفه « تنوير البقاع في أسرار الجماع »، يميل بالدرجة الأولى الى المفاكهة والمسامرة، كتب بلغة سهلة بسيطة لا تخلو من بعض العبارات العامية التونسية، قوامه سرد أقاصيص وحكايات تعتمد تصوير الواقع، وتهييج الأحاسيس الجنسية بالصور المختلفة وقد صاغ المؤلف هذه الأقاصيص والحكايات بقلمه وتوسع في الحوار وأضفى على شخصياتها من نفسه، وأهم هذه الأقاصيص قصة عبد الملك بن مروان مع ليلى الأخيلية وقصة مسيلمة الكذاب مع سجاح التميمية وقصة البهلول مع حمدونة زوجة وزير المأمون .

---

9) ص 3 من المصدر نفسه .

10) يقول التجاني في مقدمته : « وذكرنا في كل باب من هذه الأبواب ما يليق به من الأحاديث النبوية، وتعرضنا لايراد ما يحتاج اليه من المسائل الفقهية وتبيين كثير مما يشكل من الألفاظ اللغوية وكثيرا ما نتعرض لشرح الأحاديث التي نذكرها إما بنقل أقوال الناس فيها أو بمعان متفرعة يظهرها النظر ويبديها، وربما تعرضنا لصحة ما حكم العلماء بصحته من تلك الأحاديث وتقسيم ما حكموا بتقسيمه بحسب العلم والاحاطة. واذا ذكرنا في باب من الأبواب حديثين فأكثر وحكمنا بصحة أحدهما أو ضعفه فليس سكوتنا عن الباقي حكما بأنه على خلاف ذلك بل انما ننبه على ما أمكن ونذكر من ذلك ما تيسر وذلك بحسب النشاط والتفرغ للنظر » ، (ص 3 من المصدر نفسه) .

11) انظر : فهرس دار الكتب المصرية : ج 4 ، ص 78 ، لا يعلم مختصره وحذف من الكتاب الأصلي بعض فصول في الحكايات .

طبع « الروض العاطر » في العالم العربي طبعات عديدة : فاس : سنتي 1310 و 1318 ، القاهرة : سنة 1317 ، تونس سنة 1928 ، ثم توالت فيها الطبعات عن مطبعة المنار [12] ، وصدرت طبعة عربية بباريس عن مطبعة قرطاج سنة 1927[13]. واهتم به الناشرون بالغرب مثل اهتمامهم بألف ليلة وليلة، فترجم الى العديد من اللغات الأروبية اذ اعتبرت من الأعمال الابداعية والآيات الفنية النادرة في أدب الجنس [14] ، ولا يمكن لنا حصر ترجماته الى لغات العالم [15]. ويحتوى الكتاب على واحد وعشرين بابا متفاوتة الطول بدئ بباب المحمود من الرجال للنساء ثم باب المحمودات من النساء للرجال، اشترط المؤلف في المحمود من الرجال صفات جسدية معينة وخصالا منها همة النفس واللطف والصدق والشجاعة والكرم والأمانة، وتضمن الباب الثاني قصة طويلة عن سهرة جنسية يشاهدها ملك يقوم بدور البطولة فيها عبيد ونسوة، كتب بمهارة قصصية ترتكز على الوصف والحوار والشعر والتشويق باحداث المفاجآت العديدة. وتتعلق سائر الأبواب بمسائل تهم الجماع وكيفياته ومحضراته وصوره وأدوية العقم وعلاج الظواهر الجنسية المرضية، وهنالك أربعة أبواب خاصة بأسماء الأعضاء الجنسية لدى الرجل والمرأة والحيوان. وتتخلل الكتاب حكايات تصور العلاقات الجنسية بين المرأة والرجل. ويوصي المؤلف بالرقة واللطف في المعاملات بينهما وينصح باستعمال الطيب والمداعبة والتقبيل قبل المباشرة. ويلح

12) الطبعات المتداولة بتونس طبعات ناقصة وبها كثير من التحريف، ولم تصدر بعد للكتاب طبعة علمية محققة .

13) انظر تقديم روني خوام لترجمته الفرنسية : ص 28 .

- al-Nafzâwî Mouhammad : la Prairie parfumée.

14) طبع مترجما الى الفرنسية سنوات 1886 ، 1904 ، 1910 ، 1912 ، 1923 ، 1927 ، 1935 ، 1960 ، 1962 ، 1972 و 1976 وهي أصحها، وهي ترجمة روني خوام، وقد انتقد في مقدمته مختلف الطبعات الفرنسية والانقليزية وبين ما فيها من اقحام وتحريف واسقاط، واعتمد خوام على مخطوطات « الروض العاطر » الموجودة بالمكتبة الوطنية الفرنسية أرقام 3069 ، 3070 ، 3669 ، 6477 ، ونشير الى مخطوط المكتبة العبدلية بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 4200 .

15) منها الترجمة الالمانية صدرت سنة 1905 ، والانقليزية سنوات 1927 ، 1953 ، 1959 ، 1963 وطبعة باللغة السلافية بزغرب بيوغسلافيا سنة 1972 ، محلاة بالصور .

بصورة خاصة على مكائد النساء فهي « لا تعد ولا تحصى يركبن الفيل على ظهر النملة »[16]. ويصف لنا المرأة تتكالب على اللذة الجنسية، دينها وعقلها في فرجها[17].

الا أن ما يلفت الانتباه هذا الأسلوب القصصي وهذا الاستشهاد بالقرآن والحديث اتخذهما الشيخ النفزاوي اطارا دينيا وأخلاقيا لنزعته الأبيقورية الداعية الى التمتع الحسي بكل وسيلة وفي كل حال. ولئن بدا المؤلف في كتابه متدينا تقيا لابسا ثياب الورع فهو حين يقص قصصه ونوادره يقصها متلذذا، معبرا عن شخصيته من خلال تعاليقه والأحكام العامة التي يصدرها والروح الخفيفة التي يبثها في ثنايا الصفحات. وقد خص الدكتور عبد الوهاب بوحديبة هذا الكتاب بالدراسة في أطروحته بالفرنسية واعتبره المثال لهذا النوع الأدبي وآخر المؤلفات من جنسه في الأدب العربي[18].

ونلاحظ أن كتب الطب التونسية تفرد عادة بابا للباه، نذكر منها كتاب « تحفة القادم » لأبي العباس أحمد بن أبي العباس الخميري المغازلي، فرغ مؤلفه من تأليفه أوائل جمادي الأولى سنة 827 ، وخص فيه بابا طويلا للجماع وما ينشأ عنه وذكر منافعه، وفي هذا الباب وصف للرياحين والطيوب وكيفية عملها[19].

– **كتب الطب** : لا تخلو كتب الطب التونسية التي بقيت لنا من العهد الحفصي من نزعة لغوية تبدو من خلال شرح المفردات الطبية أو الآثار الشعرية في فن حفظ الصحة أو من خلال الحديث عن أمراض النفس وعلاجها .

من هذه المؤلفات « مفيد العلوم ومبيد الهموم » لأبي جعفر أحمد بن محمد بن الحشا، وهو معجم للألفاظ الطبية الواردة في كتاب المنصورى لأبي بكر الرازي، ألفه

---

16) الروض العاطر : ص 50 .
17) المصدر نفسه : ص 27 .
18) انظر : - Bouhdiba (A.) : Islam et Sexualité, T.2, P. 369. (copie dactylographiée).
19) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 18509 ، انظر : ص 73 أ – 94 أ .

بطلب من السلطان أبي زكرياء الأول الحفصي [20] ، و « المختصر الفارسي » لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عثمان الشريف الصقلي التونسي ألفه في مصر باسم أبي فارس عبد العزيز الحفصي ليقع به الاستغناء عن النظر في الكتب المطولة لمن أراد فهم موضوع الطب، وأهداه لهذا السلطان اذ رآه « أحق من يرغب في التقرب بمقام والحظوة لديه دون غيره من الملوك » [21] ، ويحتوي على مقالتين الأولى في تدبير الصحة والثانية في التحفظ من مرض الوباء، و « بدرة الملوك لسيد الملوك » لأبي القاسم ابراهيم الأزدي الأنصاري اللبني القيرواني [22] ، عمد فيه الى شرح قصيدة استاذه أبي الحسن علي بن حسن المراكشي المسماة « علامة السعادة في الأغذية المعتادة » [23] وهي تحتوي على نصائح طبية وتعرف بالأغذية وأنواعها خاصة التونسية منها وتبين منافعها .

ومن أهم هذه الكتب ما ألفه أبو العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي في عهد أبي فارس عبد العزيز وهي [24] :

- كتاب « الأدوية المفردة » وهو معجم للأدوية والعقاقير .

- شرح أرجوزة ابن سينا في الطب في ثلاثة أجزاء .

- كتاب « الطب الشريف » في حفظ الصحة ألفه للسلطان الحفصي المذكور، وينقسم الى قسمين : أمراض النفس ومداواتها وحفظ صحة الجسم. يقول الدكتور

---

20) أحمد بن ميلاد : تاريخ الطب العربي التونسي : ص 93-95 ، أورد من المعجم نماذج وذكر أنه ترجم للفرنسية ، وأن دوزى اعتمده في ملحقه للمعاجم العربية وذكر نسخا من مخطوطاته بتونس والرباط وليدن . يذكر ابن الحشا اللفظ وأصله ثم يقوم بشرحه .

21) مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 10865 ، انظر المقدمة ، ألفه مؤلفه التونسي بعدما سمع المسلمين بالحجاز بعرفات يدعون لأبي فارس .

22) أحمد بن ميلاد : الكتاب المذكور : ص 119 ، ويبدو تحريف في العنوان .

23) منها نسخة مخطوطة من مجموع بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 13595 .

24) أحمد بن ميلاد : الكتاب المذكور : ص 97-105 .

أحمد بن ميلاد عن القسم الأول ان « صلته بالطب قليلة حيث يستنجد المؤلف فيه بتعاليم القرآن والأحاديث النبوية التي يذكرها من غير اسناد »[25]. ويتحدث أحمد الصقلي في هذا القسم عن البخل والكبرياء والعجب والرياء والحسد والغضب وشهوتي الأكل والجماع وحب المال والجاه ويذكر علاج هذه الظواهر النفسية .

25) المرجع نفسه : ص 104 ، وقد نص المؤلف على مظان المخطوطات .

الفصل السابع

كتب التاريخ والتراجم

- **كتب التاريخ** : كتبت بعض التواريخ في العهد الحفصي لغاية تمجيدية، حرص فيها أصحابها على اظهار مزايا بني حفص والاشادة بأعمالهم لذلك جاءت مليئة بعبارات التنويه والتزلف الى مقام السلطان الذي رفعت له. ويغلب على هذه الكتب الطابع الأدبي، وذلك، بالاضافة الى التأنق في الأسلوب، ويكمن في عرض المحاسن في لهجة غنائية تتسم بالوضوح والتلطف وتعديد الأيادى والاكثار منها والدعاء لبني حفص. وتظهر النزعة الأدبية أيضا في هذه الكتب فيما يستطرد اليه المؤلف من الأخبار الأدبية أو ما يورده من الأشعار أو يستشهد به من الأيات القرآنية والأحاديث النبوية. وأحيانا تظهر هذه النزعة في تخطيط الكتاب، مثلما في « الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية »، خصص ابن الشماع فيه المقدمة والخاتمة لأغراض دفاعية عن سلاطين بني حفص، والباب الأول للتعريف بالمغرب وافريقية والباب الثاني للتعريف بمدينة تونس والثالث لذكر بلد رادس، وخصص بابا لوجوب طاعة أولي الأمر، وعالج في الخاتمة موضوعين : الحرابة في الاسلام وذكر بعض أحكامها ودخول العرب افريقية وسبب ذلك. وقد جمع ابن الشماع الأحاديث النبوية في وجوب الطاعة للخليفة والإقناع بحرمة هذه الولاية، يقول : « ثم اعلم ان أشرف الولايات وأعظمها ولاية أمور المسلمين لأنها موضوعة للخلافة النبوية في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فالقيام بها من أفضل القربات وثمرتها سلامة الدين وحفظ منهاج المسلمين وتمكنهم في العلم والعمل، وجعل الله بهداه الأرزاق ودفع المظالم »[1] .

وشعر ابن الشماع أن غرضه في كتابه لم يكن تاريخيا بحتا، وفسر معالجته لبعض القضايا العلمية فيه بقصده لغاية سياسية بينها بنفسه فقال : « وقد طال بنا

1) الأدلة البينة : ص 35-36 .

الكلام في بعض ذكر أحكام الحرابة لأن هذه المفسدة ببلاد افريقية فاشية منتشرة من هؤلاء الأعراب الذين ليس لهم في الاسلام الا مجرد القول والاسم والله حسيب من كان السبب في دخولهم افريقية» [2]. كما أنه بالغ في تمجيد حكم آل بني حفص وأظهر في كتابه الخصال والخلال والمآثر والحسنات والمناقب [3] المعروفة لهم، وأورد قصائد مدحية قيلت في بعضهم .

وتعلق غرض ابن قنفذ في « الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية » – وقد وسمه باسم السلطان أبي فارس عبد العزيز – بإثبات ولائه لبني حفص، ونجد في هذا الكتاب أخبارا أدبية وملامح عن الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في قسنطينة في عهد المؤلف، وجوانب من صلات عائلة ابن قنفذ بالبيت الحفصي .

ولئن علمنا أن «كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » لابن خلدون، و« تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » للزركشي قد اقتصر فيهما المؤلفان على تدقيق الأخبار وضبط التواريخ وتفصيل الأحداث فلم تجل فيهما أي نزعة أدبية، فاننا نتساءل عن اتجاه تواريخ كتبها أدباء من العهد الحفصي ولكنها مفقودة مثل تاريخ ابن عبد البر التنوخي وهو في ستة أسفار [4] و« الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام » لأبي الحجاج يوسف البياسي [5] ، وتاريخ ابن الأبار الذي قد يكون نكب بسببه، [6] وتاريخ أحمد الغساني للمستنصر وكان مؤرخ دولته [7] ، قال عنه ابن قنفذ : « كان يدون سير المستنصر، ويكتب له ما يحب من تواريخه، وما يحتاج اليه من أخبار دولته لا يشاركه في ذلك أحد، ولا يجسر أن يتحدث في ذلك غيره » [8] .

---

2) المصدر نفسه : ص 183 .
3) تلاحظ أن هذه الألفاظ من بعض العناوين الواردة في الكتاب .
4) انظر أعلاه ترجمة ابن عبد البر رقم 112 .
5) انظر أعلاه ترجمته رقم 21 .
6) انظر أعلاه ترجمته رقم 27 .
7) انظر أعلاه ترجمته رقم 37 .
8) الفارسية : ص 124 .

ومن الفصول التاريخية الأدبية في بيان المناقب والمآثر وتقديم المتحدث عنه في صورة مثالية نذكر الفصل الذي خص به عبد الله الترجمان في « تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب » سيرة أبي فارس عبد العزيز وعرض مزاياه والتغني بأياديه الجميلة على جميع الناس خاصة وعامة، والفصل الذي عقده الزركشي في شرحه لقصيدة الدماميني للسلطان أبي عمرو عثمان، ورتب فيه قسما لمن مدحه من الشعراء وأورد نموذجا من مدحه .

– **كتب التراجم** : كانت اقامة الأدباء الأندلسيين بتونس من أخصب الفترات الأدبية في حياتهم، فقد ألف ابن الأبار كتاب «الحلة السيراء » لأبي زكرياء ورسالة « إعتاب الكتاب » له أيضا، وكلاهما في التراجم الأدبية. وألف علي بن سعيد « القدح المعلى في التاريخ المحلى » و« رايات المبرزين وغايات المميزين » ترجم فيهما لكثير من الشعراء الأفارقة من زملائه وأصدقائه بتونس، وأهدى أولهما الى أحد الأمراء الحفصيين. وقد توخى ابن الأبار أسلوبا جديدا في فن التراجم، اذ ضمن « الحلة السيراء » أشعاره وأشعار الولاة والملوك الأفارقة الأندلسيين خلال القرون السبعة الأولى وصدره بمختارات كثيرة من ديوان أبي زكرياء الحفصي، وقد وصف نشاط مترجميه الأدبي وأطنب في مدح بني حفص والدعاء لهم. وترجم في « إعتاب الكتاب » لخمسة وسبعين كاتبا من المشرق والمغرب قد نكبهم الملوك واستطاعوا أن يستعيدوا مكانتهم لديهم بعد لأي، وضمن ابن الأبار رسالته رسائل « بذل الكتاب في تحبيرها جهودا لا حد لها كي يستطيعوا أن يرققوا بها قلوب أسيادهم الغاضبين وينالوا عفوهم ورضاهم »[9]. وقد تركزت هذه الرسالة على موضوع إعتاب المسئ أي ازالة اللوم عنه وإقالة عثرته وإعادته لما كان فيه من الحظوة، كتبها ابن الأبار لأبي زكرياء حين أبعده الى بجاية لغلطة ارتكبها واستشفع بابنه وولي عهده أبي يحيى زكرياء (سمي ولي العهد سنة 638 وتوفي سنة 646)، وأسرف في تزويقها بمختلف المحسنات اللفظية والمعنوية فلا غرابة أن استطاع هو أن ينال العفو ويعود الى تونس ويسعد بما كان فيه من مقام سني لكنه مؤقت[10] .

---

9) اعتاب الكتاب : المقدمة : ص 30 .

10) انظر أعلاه الملاحظة رقم 6 .

ويجب أن نولي « سبك المقال لفك العقال » لابن الطواح التونسي مكانة مهمة في فن التراجم، اذ ترجم فيه لستة وعشرين أديبا مثبتا كثيرا من الأخبار عن الحياة الأدبية والتعليمية في عصره، وقد انفرد ببعض التراجم، وبفضله اتضحت لنا جوانب مهمة كانت مبهمة تخص حياة بعض الأدباء. ومزية هذا الكتاب أنه أفادنا خاصة عن الحياة الاجتماعية التي كان يعيشها هؤلاء الأدباء وكان ابن الطواح فقيرا فاهتم بحياة أمثاله من الأدباء التعساء وسجل لمحات عن حياتهم اليومية. كما أن لكتاب « معالم الايمان » لابن الدباغ وتذييل ابن ناجي له مزية اذ نتبين من خلال التراجم المختلفة لعلماء القيروان وصلحائها توبوغرافيا كاملة عن مدينة عقبة بن نافع، عاداتها، عمرانها، تاريخها الديني والصوفي والعلمي والادبي منذ تأسست على التقوى وصارت مركزا لنشر الاسلام بافريقية والمغربين الأوسط والأقصى والأندلس. وقد خصص المؤلفان المقدمة لهذه المدينة وقيدا ما ورد فيها من أشعار لابن رشيق وابن شرف وعلي الحصري وغيرهم ومجداها ذاكرين فضلها ومزاياها. وتظهر في هذا الكتاب، المتن والذيل، ثقافة المؤلفين التاريخية والأدبية. وقد بقي مصدرا هاما للتعرف على الحضارة الافريقية والنظم الاسلامية المعتمدة ببلدان المغرب مدى ثمانية قرون.

الفصل الثامن

التآليف الدينية والصوفية

لاحظنا في الفصل الثاني المتعلق بالمدح النبوي في الشعر [1] استشراء النزعة الدينية في العهد الحفصي وازدياد عناية بعض الأدباء بالتآليف الديني، وقد تضافرت عوامل خاصة في حياة هؤلاء مع الظروف السياسية التي اكتنفتهم من اضطرابات وفتن وغزو النصارى لبلادهم ومع استفحال أمر المدرسة الفقهية المالكية بتونس على تآليف رسائل طويلة عديدة ذات صلة متينة بالتصوف والاشراق الالهي، منها رسالتا محمد الرصاع في فن الشمائل المحمدية ودلائل النبوة : « تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين وحبيب رب العالمين » و« تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار ». وتتجلى في هاتين الرسالتين النزعة الأدبية، يشرح المؤلف في الأولى أسماء الرسول ويذكر اشتقاقها ومعناها ويورد فيها كثيرا من أشعار المديح النبوي بينما يلخص في الثانية ما ورد من الأخبار في حكم الصلاة على النبي الهاشمي وفضلها وكيفيتها وبركتها ويضمنها أشعارا كثيرة وتفاسير لغوية عديدة. وتوخى الرصاع في رسالتيه وضوح العبارة فجاء خطابه طيعا لينا يتغنى فيه بالنبي ورسالته وصفاته الحميدة ويبين فيه ما ينبغي للمحب من الأخلاق والأعمال والنوايا وما يجب على المتحلي بأخلاق الرسول من الإغراق في مدحه وتمجيده والتناهي في تعظيمه [2]. وقد راعى في رسالتيه الفائدة العامة وتأجيج محبة النبي المختار في القلوب واذكاء التقوى في النفوس بعد أن تدهورت القيم بالمجتمع الحفصي واستشرى حب المادة في القلوب. يقول الرصاع في مقدمة « تحفة الأخبار » : « قصدي تلخيص ما في ذلك [فضل الصلاة على النبي] من الأخبار وتحصيل جميع ما استطعت فيه من الآثار وخدمتي للنبي الهاشمي المختار، سيما في آخر الزمان

---

1) انظر أعلاه.

2) انظر نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس جمعت الرسالتين رقم 1811 من المكتبة الأحمدية ورقمها العام 13348 ، وانظر أعلاه الترجمة رقم 189 .

الذي قلت فيه من مثلي الأعمال وأقبلت النفوس فيه على جمع حطام الأموال وأعرضت عن يوم شديد الأهوال وقست القلوب وغفلت عن اطلاع علام الغيوب وقل الاخلاص بالأعمال »[3] .

وتظهر في « تذكرة المحبين » ثقافة المؤلف اللغوية ونزعته الى الاستقصاء والشمول وطول النفس اذ كان مراده التأثير في المريدين والطلبة وتلقين السالكين الى الحق المبادئ التي تقوم عليها محبة النبي بتمجيد ذاته وصفاته ومعجزاته والخصائص التي خص بها دون غيره من الناس. وعلى منوال الرصاع حاك أحمد العروسي التونسي كتاب « وسيلة المتوسلين في فضل الصلاة على سيد المرسلين »[4] وهو تأليف يشتمل على نبذ مما ورد في فضله صلى الله عليه وسلم. وينقسم الى أربعة وعشرين فصلا بحسب المجالس، ويحتوى كل فصل بالاضافة الى التغني بفضل الصلاة على النبي على أدعية وقصيدة طويلة للمؤلف[5] .

وقد نشأت النزعة الى تأليف الرسائل الدينية منذ أوائل العهد الحفصي، فأنشأ ابن الأبار رسائل عديدة في هذا الغرض في آخر حياته حين ضاق بالحياة ومال الى الزهد مما جعل سلوكه يتغير حتى ازاء الخليفة الحفصي، فصار يفكر في الموت ولقاء الله ووهن هذه الدنيا وما ارتكبه من إثم وخطايا. من هذه الرسائل « مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل » لأبي العلاء المعري[6] ، وهي في فقرات نثرية وشعرية لزومية يتجاوز السجع فيها أحيانا أربع عشرة جملة وتعج بالغريب والاستعارات والأمثال والحكم، منها هذه الفقرة : « حبل الحياة الى انقضاب، والموت حتم في الرقاب، ما أحق الضاحك بالانتحاب، وأجدر القادم بالارتقاب، كل مرعى للضياع ومبنى للخراب، أودى جؤذر الكناس وقسور الغاب الخ ... » .

---

3) ص 227 من المخطوط المذكور .
4) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، منه نسختان رقماهما 12440 و 17918 .
5) يبدأ العروسي بتضمين قصائده ابتداء من المجلس الخامس .
6) نسخة فريدة بدار الكتب الوطنية بتونس من مجموع خطي رقم 15053 ، وقد طبعت .

ولابن الابار أيضا كتاب « درر السمط في خبر السبط » وهو في مدح الرسول وآله، وقد أثارت قصة الحسين خياله وألهبت عاطفته فأخذ يتغنى بشيم آل النبي معبرا عن حبه لهم. وهذا الحب ناشئ عن تدين وورع لا عن تشيع كما ذهب اليه بعض النقاد. ولا يحتوى الكتاب على مقدمة ويتضمن فقرات معنونة بفصول كتبت باسلوب يعتمد على « السجع والتجنيس ولزوم ما لا يلزم، وتنتهي بآية أو حديث أو قول مأثور أو بيت شعر »[7]. وكتب ابن الأبار في نفس الاتجاه كتاب « معدن اللجين في مراثي الحسين »، وهو وجه آخر من ملحمة آل البيت .

أما الرسائل الصوفية البحت، رغم أن التصوف ليس من غرض أطروحتنا، فيمكن أن نلاحظ أن المخطوطات في هذا الموضوع ما زالت راقدة في مختلف مكتبات العالم وخاصة بتونس نذكر منها رسالة أبي علي النفطي[8] ورسائل عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي[9] و « الفتوحات الربانية » لأبي محمد عبد الله المرجاني[10] ، وتآليف أبي المواهب[11]. ولم ينشر من تآليف التصوف التونسية سوى رسالة « مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب » لعبد الرحمان بن الدباغ وهو في الكشف عن حقيقة السلوك والوصول الى مشاهدة النور الأعلى وذكر المحبة ومعانيها وما تكتسبه النفس بطريقها[12] ، وكتاب « شفاء السائل لتهذيب المسائل » لعبد الرحمان بن خلدون. كشف فيه الغطاء عن طريق الصوفية وعالمهم الروحاني[13] ، وكتاب « قوانين حكم الاشراق الى كافة الصوفية في جميع الآفاق » لأبي المواهب، قدمه بقوله : « هذه حكم على طريق القوم. طرق خاطرها خاطرى في

---

7) تحقيق وتقديم عبد السلام الهراس وسعيد أحمد اعراب، تطوان 1972 .

8) منها فقرات في « الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي » لمحمد البهلي النيال : ص 214 .

9) انظر نموذجا منها في المصدر نفسه : ص 219-221 ، و « سبك المقال » لابن الطواح، في ترجمته لعبد العزيز المهدوى .

10) محمد البهلي النيال : الكتاب المذكور : ص 265 .

11) انظر أعلاه ترجمته رقم 183 .

12) نشر ببيروت عن دار صادر سنة 1959 بتحقيق هـ. ريتر .

13) نشر وتعليق أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1959 .

اليقظة والنوم، أردت اثباتها في هذه الأوراق، لأنها اشتملت على ما رق وراق، تشير الى المعارف بألطف اشارة، وتلغز المعنى بأرشق عبارة، يعشق الذائق معناها، وينعش الناشق شذاها ومغناها، وتؤنس السالك في البداية، وتوصله ان شاء الله الى الهداية »[14]. وتتميز هذه المؤلفات بالدقة في التعبير واستعمال اصطلاحات المتصوفة ورموزهم.

وتحتل أحزاب أبي الحسن الشاذلي مكانة مهمة في النثر الديني خلال العهد الحفصي، فهذه الأحزاب، وعددها اثنان وعشرون جاءت فصيحة الألفاظ، بليغة المعاني، تؤثر في النفوس وتذكي المشاعر الدينية وتغذي القلوب فتصفو الأرواح، وتلين الأجساد. وقد نهل الشاذلي فيها مباشرة من النص القرآني، وتفنن في صوغها وترصيف الكلمات بها فرشقت مبنى ومعنى، تشتمل على آيات بينة وأدعية وتوسلات حارة. وتختلف طولا ويعرف كل منها بعنوان أو أكثر[15]، وشرح بعضها شروحا عديدة[16].

---

14) ص 3 من طبعة دمشق 1966.

15) انظرها في الترجمة أعلاه رقم 24.

16) منها شروح حزب البحر أو الحزب الصغير نص عليها حاجي خليفة ومنها شرح أحمد زروق وشرح الهروى القارئ وشرح أبي سليمان داود بن عمر وعنوانه « الرسالة المرضية في شرح دعاء الشاذلية » (كشف الظنون : 661-662). وتبتدئ الاحتفالات بالمقام الشاذلي بالجلاز ابتداء من ليلة الجمعة الأولى من دخول الصيف وتستمر تلاوة الاحزاب أربعة عشر أسبوعا.

الفصل التاسع

الإجازات العلمية

يعتدّ العالم أو الأديب عادة بما حصله من إجازات علمية من أشهر المشائخ والعلماء في بلده وحتى في العالم الاسلامي لذلك يعمد بعض الأدباء لمراسلة العلماء كي يمدوهم بالإجازة العلمية ليرووا عنهم كتبهم، وتكون هذه الاستدعاءات مناسبة لخلق حركة نثرية وشعرية بين العلماء فيتراسلون من جهات قصية سواء بين بلدان المغرب العربي أو بين المشرق والمغرب، ما من شأنه أن يوطد العلاقات العلمية بينهم. وتكتب هذه الاستدعاءات بايجاز وتقدم في ثوب موشى بالبديع، منمق بالشعر، في لهجة يحرص فيها طالب الاجازة على مخاطبة أساتذه بكل لطف وأدب ليؤثر في نفس شيخه وتحظى رسالته لديه بالمقام المرموق. ونحن نأسف لضياع نصوص الاستدعاءات للإجازة العلمية، ولم يبق منها سوى العدد النزر، من ذلك استدعاء أبي الفضل التجاني أودعه للرحالة أبي عبد الله محمد بن رشيد السبتي ليبلغه لعلماء المغرب [1] ، وهو استدعاء موجز وعام يبتدئ بالشعر ثم يرد نص التماس الاجازة في تواضع ورفق ويختم بذكر اسم الكاتب كاملا معقبا بتاريخ التحرير، وأثار هذا الخطاب ردودا شعرية عديدة نظمها بعض علماء المغرب [2] .

ومن الاستدعاءات للإجازة ما كتبه أحد تلامذة محمد الرصاع اليه بعد ملازمته له بتونس ما يقرب من عشرة أعوام وهو عبد الرحمان بن محمد بن زكرياء بن محمد المريني، وهذا الاستدعاء ثمين لما فيه من معلومات علمية زيادة على قيمته الفنية والأدبية، فقد أفادنا بمادة دروس الرصاع وأوقاتها في الصيف والشتاء وفي شهر رمضان، وينص على تاليف الرصاع. ويمثل هذا الاستدعاء شهادة لطالب في أستاذ تشهد بتأثيره في نفسه وبالمكانة الجليلة التي تحتلها في القلوب [3]. وقد حرر الطالب

1) محمد الحبيب بلخوجة : أبو الفضل التجاني كما يصوره ابن رشيد في رحلته: ص 284 .
2) المرجع نفسه : ص 285-294 .
3) انظر نص هذا الاستدعاء في فهرست الرصاع : ص 212-216 .

الأسباب التي جعلته يلتمس الاجازة، وهي تتمثل في طلب العلم وقيمة الشيخ المجيز وشهرته وتضلعه في العلوم وتدريسها، ويطلب « اجازة تامة مطلقة » في ما درسه خاصة البردة والشقراطسية والمنفرجة وجملة من تآليفه مثل « تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين وحبيب رب العالمين » و« تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار » والخمسمائة صلاة على النبي، وشرح وصية الظريف، وشرح حدود ابن عرفة، وتفسير القرآن الكريم، والفهرست وما تضمنه من الأسانيد، ويطالب أن يأذن له في اقرائها واقراء العربية والبيان، ويختم بالدعاء لشيخه، وقد اجتهد في ترصيع استدعائه ونمنمته بالسجع والتضمين للقرآن والحديث، ولم يبالغ الرصاع حين وصف هذا الاستدعاء بأنه في ذروة البلاغة لما فيه من زخرف في التعبير وتوشية في الخطاب[4]. وقد أجاز الرصاع تلميذه، وتحتوى إجازته على عدة عناصر [5] :

– الحمدلة والتصلية المناسبتان لموضوع الإجازة.

– التنويه بالطالب المستجيز خاصة بما رأى منه من « حسن الحفظ، وعلو الهمة والبحث عن الحقائق والسؤال عن الدقائق وكثرة المراجعة في مسائل قل من يسأل عنها من صنفه لحسن نيته الخ ... » .

– نص الاجازة « اجازة عامة مطلقة بشرطها عند أهلها وفي جميع ما ذكره من الكتب وغيرها »، والاذن له في الرواية عنه واقراء جميع ما حصله منه .

– توصيات علمية ونصائح دينية أخلاقية .

– نظم الاجازة شعرا [6] .

– الختم بالدعاء والتصلية وذكر اسم المجيز .

---

4) المصدر نفسه : ص 217 .

5) المصدر نفسه : ص 217-218 .

6) لا ندري هل ان هذه الأبيات من نظم الرصاع أم استشهد بها .

ولئن جاءت اجازة الرصاع لتلميذه المريني خالية من الزخرف والتنميق، في أسلوب سهل بسيط، فإن إجازة أبي بكر محمد بن حبيش تنم على مهارة في الإنشاء الفني وقدرة على رصف الجمل المزدوجة، وتلوين الخطاب بالأمثال ومختلف الأشكال البلاغية من انكار واثبات، وتساؤل واقرار، وتوخي مختلف فنون الاستعارة والجناس ووجوه المقابلة والطباق [7]. ولعل أهم ما في هذه الاجازة تواضع كاتبها رغم تفوّقه في الشعر والنثر، ولا يدل هذا التواضع الا على تلطف الأستاذ بطلبته واحترامه لهم.

---

7) انظر نص اجازة ابن حبيش في رحلة العبدرى : ص 269 .

الفصل العاشر

كتب النحو والصرف واللغة والبلاغة والنقد الأدبي

اعتمد في تدريس النحو والصرف واللغة بتونس خلال العهد الحفصي باكمله خاصة على مؤلفات ألفت في صدر الدولة الحفصية، نذكر منها مؤلفات علي بن عصفور منها « المقرب » و« الهلالية » في النحو، و« الممتع » في الصرف[1]، وتآليف أبي جعفر أحمد اللبلي منها « تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح » و« وشي الحلل في شرح أبيات الجمل » و« بغية الآمال في النطق بجميع مستقبلات الأفعال » و« الإعلام بحدود قواعد الكلام عن الاسم والفعل والحرف » [2]. ولنا عناوين كثيرة لكتب ألفها علماء خلال العهد الحفصي في النحو والصرف لكنها ضائعة مثل تاليف أحمد الزواوي ومحمد الرصاع وكتاب محمد الرملي « مقدمة في علم العربية » وحاشية محمد الطبلبي على توضيح ابن هشام و« الموهبة السنية في علم العربية » لمحمد بن راشد القفصي، وكتاب أحمد اللؤلؤي القيرواني في الظاء والضاد[3].

أما في اللغة فليس لنا عن التآليف فيها الا ما أفادنا به ابن خلدون من أن محمد بن أبي الحسين وزير أبي زكرياء ثم المستنصر قد لخص معجم « المحكم » لابن سيده الأندلسي (ت 458) قالبا اياه من الترتيب المخرجي للحروف مثلما في كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 180) الى الترتيب المتعارف حسب الحرف الأخير من الكلمة على طريقة «الصحاح» للجوهري (ت 393)، وقد قارن ابن خلدون

---

1) انظر أعلاه الترجمة رقم 38 .

2) انظر أعلاه الترجمة رقم 62 .

3) ياقوت : معجم الأدباء : ج 2 ، ص 204-208 ، ونحن نأسف لضياع هذا الكتاب عن صوتين من أصوات الحروف العربية قد تطورا كثيرا في المكان والزمان .

معجم ابن أبي الحسين بهذا الكتاب الأخير واعتبرهما « توأمي رحم وسليلي أبوة »[4]، كما أنه عده من أصول كتب اللغة[5].

أما في البلاغة فلنا تآليف تونسية عديدة منها كتاب « البديع » لأحمد التيفاشي[6] وكتاب « التجنيس » لحازم القرطاجني الا أنهما كتابان ضائعان، ويقي لحازم كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » قدم فيه صاحبه نظرية متماسكة في الانشاء أولى فيها المعنى ووحدة الأثر الأدبي مكانة مهمة، واهتم خاصة ببيان تأثير الخطاب الأدبي في القارئ أو المستمع، وقد حلل الوحدة العضوية في الأثر الفني بمعناها الواسع مراعيا الانسجام الكلي بين مستويات عديدة : لغوية ونحوية ومعنوية، من أجل غاية جمالية متأثرا في ذلك بنظرية أرسطو عن الخلق الأدبي كما نقلها الى العربية وعلق عليها ابن سينا. ولعل أهم ما في هذه النظرية ما يتعلق بالمحاكاة في الابداع الأدبي والصلة بين الواقع وأغراض الشعر[7].

ومن الكتب التي تحتوى على مواقف نقدية من قضايا أدبية ولغوية عديدة نذكر مقدمة ابن خلدون، ففي اطار بحثه في بيان طبيعة العمران وما يعرض فيه من الظواهر، خصص قسما من أقسامها الستة لدراسة «العلوم وأصنافها والتعليم

---

4) المقدمة : ص 485 .

5) المصدر نفسه : ولم نعتبر « لسان العرب » لابن منظور من التآليف التونسية اذ لم يتبين لنا من خلال النصوص التي ترجم لصاحبه فيها أنه ولد أو عاش بافريقية ، أما طرابلس المذكورة في الترجمات الخاصة به فهي طرابلس الشرق .

6) القلقشندي : صبح الأعشى : ج 1 ، ص 469 ، وكان من الكتب المعتمدة بالمشرق .

7) انظر :

- G.J.H. Van Gelder : Critic and Craftsman : Al-Quartajanni and the structure of the poem, in Journal of Arabic Literature, vol. X, p. 26-48, Leiden / E.J. Brill / 1979.

- Wolfhart heinrichs : Arabische Dichtung und griechische Poetik. Hazim al-Quartagannis Grundlegung der poetik mit Hilfe aristotelischer Begriffe, Beirut Wiesbaden, 1969.

- Gregor Schoeler : Einige grundprobleme der autochtbonen und der aristotelischen arabischen Literaturtheorie. Hazim al-Qartaganni's uber die Zielsetzungen der Dichtung und die Vorgeschichte der in ihm dargelegten gedanken, Wiesbaden, 1975.

وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من أحوال »، وخصص الباب السابع والثلاثين منه لعرض تاريخي شامل لعلوم اللسان العربي منذ نشأتها الى زمنه هو في بلاد افريقية والمغرب والأندلس والمشرق، فقدم بذلك تقريرا ضافيا عن الخطوط العريضة لتطور فنون اللغة والنحو والبيان والأدب. وتتخلل هذا التقرير أحكام نقدية عن كتب عديدة في هذه الفنون مثل كتاب سيبويه [8] و « مغني اللبيب » لابن هشام [9] وكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني [10] و «العمدة» لأبي الحسن بن رشيق [11]، وآراء عن شعراء وأدباء ناثرين ومقارنات بينهم وسبب تفاوتهم في البلاغة [12]. الا أن ابن خلدون تهجم على أدباء افريقية ونفى أن يكون لها أدباء غير ابن رشيق وابن شرف [13] رغم أنه أبدى اعجابه في مواضع أخرى في « التعريف » [14] خاصة ببعض شعرائها الآخرين [15]. كما أنه انتقد الكتاب في دواوين الانشاء في عهده لتوخيهم السجع في رسائلهم وكتبهم [16]، ودعا الى الترسل في المخاطبات السلطانية وهو « اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الأقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال » [17].

---

8) المقدمة : ص 394 .

9) المصدر نفسه : ص 383-384 .

10) المصدر نفسه : ص 389 ، قال ابن خلدون عن « الأغاني ». « ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو الأديب [اليها] ويقف عندها وأنّى له بها »، وانظر أيضا : ص 499 ، 505 .

11) المصدر نفسه : ص 505-506 .

12) المصدر نفسه : ص 510 .

13) المصدر نفسه : ص 498 .

14) نوه بالخصوص بأبي القاسم الرحوى، واستشهد بشعره في « المقدمة »، انظر · ترجمته أعلاه رقم 143 .

15) تهجم حتى على شعرائها في العامية، واعتبر أكثر زجلهم رديئا، (المقدمة : ص 536) .

16) المقدمة : ص 500 .

17) المصدر نفسه .

الا أن من أهم النظريات النقدية في « المقدمة » ما ذهب اليه ابن خلدون في طريقة اكتساب التعبير الصحيح وتعلم اللغة لتكون أداة ابلاغ وذلك لا بحفظ القواعد النحوية والقوانين العلمية وانما بحفظ نماذج بليغة من الكلام وبالتعود على التراكيب الحسنة بممارستها ومدارستها [18] . كما أن لنظم الشعر عنده شرطا أساسيا وهو ضرورة نشأته عن ملكة في النفوس وعن حال شعرية تتم في ظروف مكانية وزمانية مساعدة [19]. هذا الى جانب آرائه في مسائل علمية تعليمية عديدة وجرأته في عد الشعر بلغة البدو والعامة في مكانة من البلاغة والتعبير الفني في محله ومدافعته عنه وتبرير شهادته له بالبلاغة بمعرفته الجيدة للهجات البدو، موردا نماذج عديدة طويلة منه قيلت في عصره [20] .

ونلاحظ أن العهد الحفصي الذي أنتج نصوصا نثرية نالت اليوم شهرة واسعة، وكان لها صدى بعيد حتى في مستوى عالمي مثل مقدمة ابن خلدون و« منهاج البلغاء » لحازم القرطاجني و« الروض العاطر » لمحمد النفزاوي وبعض تآليف أحمد التيفاشي، قد كتب فيه أدباء نصوصا أدبية ذات عناوين دالة على أهميتها الكبيرة، لكنها ضاعت نذكر منها كتابي علي بن رزين « نظم الفريد في منتخب الأدب الطارف والتليد » و« جنى الزَهر وسنا الزُهر »، وبعض تآليف ابن جابر الوادي اشي وأبي الفضل التجاني .

---

18) المصدر نفسه : ص 489 ، 496-497 .

19) المصدر نفسه : ص 505 .

20) المصدر نفسه : ص 512-537 ، فصل في أشعار العرب وأهل الأمصار، وفصل آخر وهو الأخير في « المقدمة » في الموشحات والازجال .

الفصل الحادي عشر

خلاصة عن

أهم خصائص هذا النثر

لقد تخلص النثر في تونس خلال العهد الحفصي غالبا من الزخرف اللغوي والتأنق في اختيار اللفظ والتعقيد في التعبير والتكلف في رصف الجمل. واذا استثنينا نصوص الرسائل الديوانية والسلطانية والاخوانية وديباجات الكتب ومقدمات الدواوين الشعرية فان النصوص النثرية الباقية تتميز عموما بالوضوح والايجاز والدقة في التعبير وقلة الاسجاع والمحسنات البلاغية التي تأتي فيها عادة عفوية، فنجد فيها طلاوة تدل على تمكن من التعبير نطلع خلالها على ثقافة الأديب وشخصيته القوية المتكونة التي تهتم بابلاغ المعنى أصلا وتعتبر أن كل تأليف ينبغي أن يحتوى على فوائد زائدة والا فهو يعد من العبث والخسران [1].

ولقد استطاع الأدباء التونسيون أن يتخلصوا من تأثير المدرسة النثرية الأندلسية التي يمثلها لسان الدين بن الخطيب وتعتمد الافراط في السجع والاغراب في اللغة والغلو في استعمال المحسنات البديعية، ولعل ابن خلدون وليد المدرسة التونسية في فن الترسيل لم يكن نسيج وحده فيها، لقد لاحظ بنفسه اختصاص القلم بديوان الانشاء الحفصي بعن يجيد الترسيل [2]، ونجد أبا عبد الله محمد بن شباط (ت681) يضع شروط الكلام البليغ ويلح على القصد الى المعنى أساسا يقول: « الشرف الراجع الى الكلام في نفسه اما أن يرجع الى لفظه واما أن يرجع الى معناه. أما الراجع الى لفظه فأن يكون متخيرا تخير الجواهر الحسان، ومنظوما نظم

---

1) كان ابن عرفة يقول : يجب أن يحتوى التأليف على فوائد زائدة والا فهو تخسير الكاغد. انظر: أحمد بابا : نيل الابتهاج : ص 274 .

2) المقدمة : ص 215 ، طبعة دار الشعب .

الجمان، حتى يكون كالعقود، على أجياد الخرد الخود، وقانون هذه الجملة ألا يكون اللفظ غريبا وحشيا ولا ساقطا عاميا، وأما المعنى بأن يكون نبيلا شريفا رفيعا منيفا زكيا عليا واضحا جليا. ومن الناس من يخيل اليه أن الفصاحة الاتيان بالألفاظ المسجعة المصونة، والأبيات المرصعة الموزونة، مع الخلو من المعاني الرفيعة واللطائف البديعة، وذلك أخطأ الغرض، وأمر فصد الصحة بمضاعف المرض »[3].

وكان المثال المحتذى لهذا النثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لذلك نلاحظ ميلا الى الاقتباس منهما والاستشهاد بنصيهما والمحاكاة لهما، واكتسب النثر وظيفته التعبيرية وابتعد عن الالتواء في الأداء الفني والغموض في الأفكار والتهويل في التصوير، نستشف فيه نصاعة الفكر وتضلع أصحابه في التأليف وصوغ الأفكار.

ويمكن أن نلخص فنقول إن أهم صفة تميز بها النثر في العهد الحفصي بتونس هي الترسل التزمه الأدباء في تآليفهم خاصة منهم أبو زكرياء الأول وأحمد التيفاشي وعبد الرحمان بن الدباغ وعبد الله التجاني ومحمد بن راشد ومحمد الظريف ومحمد بن عرفة وعبد الله الترجمان وأبو القاسم بن ناجي ومحمد الرصاع. وقد أحس عبد الرحمان بن خلدون أن الكتاب بتونس يختلفون في هذه الصفة عن كتاب المشرق، وعاب هؤلاء بالتزامهم التنميق بكثرة الأسجاع والتشبيهات والاستعارات وفسره بجهلهم للتراكيب العربية القويمة واستيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال[4]. ولم يجدد الأدباء التونسيون أساليب النثر بل عادوا به الى الروح التي كان يكتب بها عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع[5].

---

3) صلة السمط : ص 32 أ .

4) المقدمة : ص 500 .

5) ضمن ابن خلدون مقدمته رسالة طويلة لعبد الحميد الكاتب. انظر : ص 207-210 .

خـــاتـــمــــــــة

يتبين في خاتمة هذا البحث أن العهد الحفصي الممتد أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن يمكن أن يعتبر بحق عهدا ذهبيا من حيث الحركة الأدبية والنشاط الثقافي والحياة الفكرية، إذ جادت لنا فترات هذا العهد بأدب ناضج وبأعلام مشاهير تجاوزت شهرتهم حدود افريقية الى المغرب الأقصى والأندلس والمشرق رغم أن العهد الحفصي تتخلله فترات من الفوضى والاضطراب السياسي والحروب المتواصلة والغزوات الصليبية العديدة، ونلاحظ أن العهد الذي أنتج أحمد التيفاشي وأفراد عائلة التجاني الأعلام في الأدب وعبد الرحمان بن خلدون، قد بلغت فيه الثقافة أوجها وحفلت العاصمة التونسية بالعلماء الأفذاذ واللغويين المصاقيع والأدباء البلغاء وأنبتت أجيالا من الشعراء والمفكرين والكتاب التونسيين الذين كتبوا بلغة ناصعة ونظموا أشعارهم بأسلوب مشرق من حيث المبنى والمعنى، فتميزت بمتانة الحبك وشفافية الصور وحساسية الاشارة ورهافة الشعور. وكانت تونس عاصمة العالم العربي اذ ذاك، توجهت اليها أنظار جميع المسلمين بعد سقوط الخلافة ببغداد واحتلال النصارى لأغلب المدن الأندلسية وانهزام ملوك الطوائف بها. وقد جلبت تونس منذ أن صارت قاعدة لدولة بني حفص العلماء والأدباء اليها من الأندلس والمغرب، ومدح الشعراء من مختلف البلدان العربية السلاطين الحفصيين طامعين في الجوائز السنية، وأعلنت الخلافة في تونس ووصلت البيعة من الأندلس والمغرب وبلاد الحرمين الشريفين، وتوفرت عوامل ثقافية وأدبية على نبوغ هذا العدد الكبير من الأدباء والمفكرين واللغويين، اذ لم تكن نشأة ابن خلدون وأمثاله اعتباطية أو ظاهرة فريدة في نوعها وانما هي وليدة ما يمكن أن نسميه بالمدرسة الأدبية والفكرية التونسية، وقد أرسى أسسها أساتذة قدموا اليها من مختلف أنحاء افريقية، فكانت مؤلفات ابن عصفور واللبلي النحوية والصرفية، وحازم القرطاجني النقدية والبلاغية، وأشعار ابن الأبار وابن عربية وابن حبيش، وشروح ابن شباط وابن سيد الناس وابن البرا وغيرهم هي التي تخرجت بها الأجيال في كامل العهد الحفصي في مؤسسات علمية وثقافية بعثها بنو حفص في كامل أنحاء عاصمتهم. ولاحظنا أن الصلات

العلمية والأدبية والفكرية ما انفكت متواصلة بين تونس وبلدان المغرب من ناحية وبينها وبين المشرق من ناحية أخرى .

وبالجملة فقد بينا بالتفصيل ما أشار اليه محقق فهرست الرصاع في مقدمة تحقيقه أن الحقبة الحفصية كانت «حقبة مشرقة ازدهرت فيها الثقافة العامة بما توفر لها من أسباب النشاط البالغ المتمثل في عناية الملوك والوزراء بالعلماء والأدباء والمفكرين والعطف عليهم واحلالهم بالمكان الأرفع واسناد مهام الخطط العلمية والسياسية والوقوف عند ارائهم الموفقة التي يشيرون بها عليهم، وهذا ما حمل الكثير من علماء الأندلس وطرابلس والمغرب والجزائر على انتجاع ربوع آل حفص والانقطاع لخدمتهم اجابة للرغبة العلمية الصادقة ووفاء بالواجب المفروض فبثوا العلم ونشروا الأدب وقدموا التآليف الجليلة لخزائن ملوك آل حفص ونشروا على الأسماع محامدهم وأشادوا بمفاخرهم »[1] .

وقد تواصلت الحياة الأدبية في نشاط زاخر الى نهاية العهد الحفصي حيث غزا الاسبان تونس ثم فتحها الأتراك، وخلت من أي حركة علمية وأدبية باللغة العربية بمغادرة آخر جيل من الأدباء والشعراء والعلماء في العهد الحفصي الحاضرة التونسية الى المغرب والمشرق أو بموت الكثير منهم استشهادا في الحروب الدائرة رحاها بين الاسبان والأتراك أو بين المتطاحنين على العرش من البيت الحفصي، وقد امتدت فترة طويلة من الفتح العثماني الى ما قبل العهد الحسيني، نضب فيها معين الثقافة العربية بتونس وسيطرت التركية في البلاد التونسية الى أن تدارك أمر العربية الأمير حسين باي بن علي مؤسس الدولة الحسينية وأبناؤه خاصة أحمد باي المشير الأول اذ بعث في عهده المصلح خير الدين المكتبة الحفصية وأحياها من جديد بعد أن تلف معظم كتبها بالنكبة الكبرى التي أصابت تونس باكتساح جنود الاسبان المعالم الدينية والعلمية بها وعبثهم بالكتب واحراقهم لها وهدمهم للمعالم العمرانية الحضارية. وكأن الفترة الكالحة التي انعدم فيها أي نشاط بالعربية الفصحى قد

---

1) ص : ف .

عفت على ذكر آثار الحياة الأدبية في عهد بني حفص، وقد قام عملنا باحياء معالم هذه الحياة الأدبية والتعريف بأدباء كانوا مغمورين، وهو ما يصبو اليه الكثير من المتطلعين الى كتابة تاريخ الأدب التونسي كتابة علمية، ويندرج عملنا حلقة في نطاق سلسلة الأشغال الرامية الى التعريف بالحياة الأدبية في مختلف عهود التاريخ التونسي : وقد كانت أطروحة الدكتور الشاذلي بويحيى « الحياة الأدبية بافريقية في العهد الزيرى » رائدنا في هذا البحث وتمثل الحلقة الأولى في هذه السلسلة .

المصادر والمراجع

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) :

- التكملة لكتاب الصلة : السفر الأول، مجريط 1886، المجلد الثاني، مجريط 1887 .

- المقتضب من كتاب تحفة القادم : اختيار وتقييد أبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقي (من القرن الثامن الهجري)، تحقيق ابراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية، وزارة التربية والتعليم، قسم التراث الثقافي، القاهرة 1957 .

- اعتاب الكتاب : تحقيق د. صالح الأشتر، المطبعة الهاشمية، من مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1961 .

- الحلة السيراء : ج 1، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة 1963 .

- مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل في معارضة ملقى السبيل لأبي العلاء المعري : سلسلة رسائل ونصوص، عدد 3، اشراف د.صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت 1963. (نشر النص مع نصين آخرين عن مخطوط فريد بدار الكتب الوطنية بتونس رقم (15053) .

- المعجم في أصحاب القاضي الامام أبي على الصدفي : المكتبة العربية عدد 7، المكتبة الأندلسية، القاهرة 1967 .

* ذكرنا هنا أهم المصادر والمراجع المعتمدة، وقد استعملنا أحيانا طبعات لبعضها أخرى ذكرناها داخل النص أو في الملاحظات، وأحلنا أحيانا أخرى على عدد من الكتب في مواضيع جزئية ذكرناها كذلك داخل النص أو في الملاحظات . .
ونلاحظ أننا لم نراع الابن أو الأب في ترتيب هذه القائمة الألفبائي .

- درر السمط في خبر السبط : تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد اعراب، تطوان 1972 .

الأبي (أبو عبد الله محمد بن خلفة الوشتاتي) :

- اكمال اكمال المعلم في شرح صحيح مسلم : 7 أجزاء، مصر 1328 .

- تفسير القرآن : مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 2860 .

ابن الأحمر (أبو الوليد اسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي) :

- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان : دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، سلسلة المكتبة الأندلسية، دار الثقافة، بيروت 1967 .

- نثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان : كتاب نشر تحت عنوان « اعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن » تحقيق وتقديم د. محمد رضوان الداية، بيروت 1976 .

أمين (بكري شيخ) :

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني : دار الشروق، بيروت 1392 / 1972 .

بابا التنبكتي (أحمد) :

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج : طبع بهامش كتاب الديباج المذهب، صورة بالاوفسات للطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت .

باتسيفا (سفيتلانا) :

- العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون : تعريب رضوان ابراهيم عن الروسية، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1398 / 1978 .

البختري (أحمد) :

- الجديد في أدب الجريد : الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1973 .

بدوى (أحمد أحمد) :

- أسس النقد الأدبي عند العرب : ط 2، مصر 1960 .

بدوي (عبد الرحمان) :

- مؤلفات ابن خلدون : ط 2، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1399 / 1989 .

- الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين : دار المعارف، مصر 1962 .

البرزلي (أبو القاسم بن محمد) :

- جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكام : مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، رقم 5429 .

- الفتاوى : مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، رقم 4692 .

بروفنسال (ليفي) :

- الاسلام في المغرب والأندلس: ترجمة د. محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، سلسلة الألف كتاب عدد 98، القاهرة، د.ت .

ابن بطوطة :

- الرحلة : دار صادر، بيروت 1964 .

البغدادى (اسماعيل باشا) :

- هدية العارفين لأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : جزآن، استنبول 1955 .

البقاعي (ابراهيم) :

- عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 15059 .

بلخوجة (محمد الحبيب) :

- أبو الفضل التجاني كما يصوره ابن رشيد في رحلته: فصل صدر بالنشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، السنة 1، العدد1، 1391 / 1971، ص 257 - 294 .

- الحياة الثقافية بافريقية صدر الدولة الحفصية : فصل صدر بالنشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين السنة 4، العدد 4، 1976 / 1977، ص 29 - 80 .

البلوى (خالد بن عيسى) :

- الرحلة المسماة « تاج المفرق في تحلية علماء المشرق » : جزآن تقديم وتحقيق الحسن السائح، اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين حكومة المغرب ودولة الامارات العربية المتحدة، المغرب، د.ت .

بوتول (غاستون) :

- ابن خلدون فلسفته الاجتماعية : ترجمة عادل زعيتر، القاهرة 1955 .

بوعياد (محمود) :

- جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982 .

ابن تاويت (محمد) :

- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى : دار الثقافة، الدار البيضاء 1402 / 1982 .

التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) :

- تحفة العروس ومتعة النفوس : القاهرة 1301 (نسب غلطا لابي عبد الله محمد بن أحمد التجاني) .

- الرحلة في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي من سنة 706 الى 708 هـ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، من نشريات كتابة الدولة للمعارف، تونس 1377 / 1958 .

التجيبي (القاسم بن يوسف السبتي) :

- البرنامج : تحقيق واعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1981 .

الترجمان (عبد الله) :

- تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس أرقام 4347، 4478، 4564، 18456 .

التوزري (الهادي مصطفى) :

- عبد الله الشقراطسي، مطبعة الترقي، تونس، د.ت .

التيفاشي (أبو العباس أحمد بن يوسف) :

- سرور النفس بمدارك الحواس الخمس : تهذيب محمد بن جلال الدين المكرم بن منظور، تحقيق د.احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1400 / 1980 .

الجودي (محمد) :

- تاريخ قضاة القيروان : صورة من مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 645 .

الحاجري (محمد طه) :

- ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة : دار النهضة العربية، بيروت 1980 .

ابن حجر (أحمد العسقلاني) :

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : 5 أجزاء تحقيق محمد سعيد جاد الحق، القاهرة 1966 .

حسن (عبد الحميد) :

- الأصول الفنية للأدب : مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1949 .

حسن (محمد عبد الغني) :

- الخطب والمواعظ : سلسلة فنون الأدب العربي، الفن التعليمي، عدد 2، ط 2، دار المعارف، مصر 1968 .

حسين (علي صافي) :

-الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري : سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، مصر 1964 .

حسين (محمد الخضر) :

تونس وجامع الزيتونة : جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، دمشق 1391 / 1971 .

الحشائشي (محمد بن عثمان) :

- الدر الثمين في التعريف بأبي الحسن الشاذلي وأصحابه الأربعين : تونس 1327 .

- تاريخ جامع الزيتونة : تقديم وتحقيق الجيلاني بن الحاج يحيى، نشر المعهد القومي للآثار، تونس 1974 .

خضر (حازم عبد الله) :

- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين : دار الرشيد للنشر من منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية 1981 .

ابن الخطيب (لسان الدين) :

- رقم الحلل في نظم الدول : المطبعة العمومية، تونس 1316 .

- أعمال الأعلام : تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، بلرم، صقلية 1910 .

- روضة التعريف بالحب الشريف : جزآن تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، بيروت 1970 .

- الكتيبة الكامنة في من لقيناه، بالأندلس من شعراء المائة الثامنة : تحقيق د. احسان عباس، سلسلة المكتبة الأندلسية، دار الثقافة، بيروت، د.ت .

- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام : دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1973 .

- اللمحة البدرية في الدولة النصرية : صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة 1347 .

- الاحاطة في أخبار غرناطة : مجلدان، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة 1973 - 1974 .

ابن خلدون (عبد الرحمان) :

- المقدمة : المطبعة الأزهرية، القاهرة 1348 - 1930 .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : 7 أجزاء، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت 1959 .

- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا : دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة 1979 .

ابن خلدون (أبو زكرياء يحيى) :

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد : تقديم وتحقيق وتعليق د. عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر 1400 - 1980 .

الخلوف (أحمد بن أبي القاسم) :

- الديوان : مخطوطات بدار الكتب الوطنية بتونس، أرقام 5644 1850، 13429، 18769 .

خليفة (حاجي) :

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: جزآن نسخة مصورة، بغداد 1941.

ابن الخوجة (محمد) :

- تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد : تونس 1358 - 1939 .

الداية (محمد رضوان) :

- مختارات من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية وفي الموشحات والأزجال : سلسلة دراسات أندلسية، عدد 3، المكتب الاسلامي، ط 2، 1972 .

ابن الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري الأسيدي) :

- معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي، 4 أجزاء، ج 1 تصحيح وتعليق ابراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر 1968، ج 2 تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس 1972، ج 3 تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر 1978، ج 4 تونس 1320، ومخطوط خاص بمكتبتنا.

- مشارق أنوار القلوب و مفاتح أسرار الغيوب : تحقيق هـ. ريتر، دار صادر، بيروت 1479 - 1959 .

الدولاتلي (عبد العزيز) :

- مدينة تونس في العهد الحفصي : تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتلي، دار سراس للنشر، تونس 1981 .

ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) :

- المؤنس في أخبار افريقية وتونس : مطبعة النهضة، تونس 1350 .

ابن راشد القفصي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) :

- الفائق في معرفة الأحكام والوثائق : مخطوط في 5 مجلدات، توجد منه أجزاء بدار الكتب الوطنية بتونس، أرقام 4858، 12292، 12293، 12294، 12295 .

الراشدي (عمر بن علي الجزائري) :

- ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب قطب الأقطاب، والغوث الملتجأ اليه بلا ارتياب [...] سيدي أحمد بن عروس، مطبعة الدولة التونسية، 1303 .

ابن رشيد (أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري السبتي) :

- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة وطيبة : تقديم وتحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة : ج 2 (تونس عند الورود) الدار التونسية للنشر، 1302 - 1982، ج 3 (الاسكندرية ومصر عند الورود) نشر الشركة التونسية للتوزيع 1981 .

- افادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح : تحقيق د. محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ت .

ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) :

- العمدة في صناعة الشعر ونقده : تحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت 1403 - 1983 .

الرصاع (أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري) :

- الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق ابن عرفة الواقية: المطبعة التونسية، تونس 1350 .

- الفهرست : تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس 1967 .

- تذكرة المحبين في أسماء المرسلين : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 13348 .

- تحفة الأخيار في فضل الصلاة على النبي المختار : ضمن المخطوط السابق .

- شرح وصية الشيخ محمد الظريف : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 15456 .

الزبيدي (محمد بن الحسين) :

- طبقات النحويين واللغويين : القاهرة 1954 .

الزركشي (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) :

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية : تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، ط 2، تونس 1966 .

- بلوغ الأماني في شرح قصيدة الدماميني : مخطوط أصلي بخط المؤلف بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم1915، ونسخة رقم1915بدار الكتب الوطنية بتونس .

الزركلي (خير الدين) :

- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين : 10 أجزاء، ط 2، د.ت. (ج 2، 1954، ج 4، 1959) .

زيادة (نقولا) :

- الجغرافية والرحلات عند العرب : مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت 1962 .

- صفحات مغربية : دار الطليعة، بيروت 1966 .

ابن سحنون (محمد التنوخي) :

- كتاب آداب المعلمين : نشر وتصحيح وتعليق حسن حسني عبد الوهاب ، اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية، مطبعة العرب، تونس 1350 .

السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمان) :

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : 12 جزءا، نشر مكتبة القدسي القاهرة 1353 - 1355 .

- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : دار الكتاب اللبناني، صورة بالاوفسات للطبعة الأولى، د.ت.

السراج : انظر الوزير السراج .

سركيس (يوسف اليان) :

- معجم المطبوعات العربية والمعربة : مطبعة سركيس، مصر 1346 - 1927، ومنه طبعة معادة بالاوفسات ببغداد .

سزكين (فؤاد) :

- تاريخ التراث العربي : ج 1، 2، تعريب د.محمود فهمي حجازي ود.فهمي أبو الفضل، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1977، 1978 .

ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى) :

- اختصار القدح المعلي في التاريخ المحلى : اختصار أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق ابراهيم الأبياري، القاهرة 1959 .

- المغرب في حلى المغرب : جزأن، تحقيق وتعليق د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط 2، 1964 .

- رايات المبرزين وغايات المميزين : تحقيق د.النعمان عبد المتعال القاضي، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة 1393 - 1973 .

- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة : تحقيق ابراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر د.ت .

السعيد (محمد مجيد) :

- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : سلسلة دراسات، نشر وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد 1980 .

سلام (محمد زغلول) :

- الأدب في العصر الأيوبي : دار المعارف، مصر 1968 .

السنوسي (محمد بن عثمان) :

- مسامرات الظريف بحسن التعريف : ج 1، ط 2، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، دار بوسلامة للنشر، تونس 1983 .

- الرحلة الحجازية : ج 1، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 13966 - 1976 .

السيوطي (جلال الدين) :

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جزآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر 1964 - 1965 .

الشابي (علي) :

- العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابي وفلسفته الصوفية : المكتبة الشابية عدد 1، تونس 1979 .

- عرفة الشابي رائد النضال القومي في العهد الحفصي : الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1982 .

الشاذلي (أبو الحسن علي) :

- نبراس الأتقياء ودليل الأنقياء، طائفة من أحزاب الشاذلي ووظائفه وأدعيته: المطبعة العصرية، تونس 1964 .

ابن شباط (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد المصري التوزري) :

- صلة السمط وسمة المرط : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، ج 1 ورقم 5605 ج 2 في سفرين رقمي 18564 و 18565، ج 3 رقم 5606 .

بن شريفة (محمد) :

- أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره : نشر المركز الجامعي للبحث العلمي بجامعة محمد الخامس، الرباط 1385 - 1966 .

ابن شقرون (محمد بن أحمد) :

- مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر، دراسة في الأدب المغربي : الرباط 1982 ..

ابن الشماع (أحمد بن محمد) :

- الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية : تحقيق عثمان الكعاك، تونس 1936 .

ابن الصباغ (محمد بن أبي القاسم الحميري) :

- درة الاسرار وتحفة الأبرار في مناقب ذي الكعب العلي والفخر الشامخ الجلي القطب الأكبر والغوث الأشهر سيدي أبي علي الحسن الشاذلي : المطبعة الرسمية التونسية، تونس 1304 .

الصفاقسي (ابراهيم بن محمد) :

- المجيد في اعراب القرآن المجيد : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس في أجزاء أرقام من 300 الى 307 ورقم 412 .

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) :

- نكت الهميان في نكت العميان : المطبعة الجمالية، مصر 1329 - 1911 .

- توشيع التوشيح : تحقيق ألبير حبيب مطلق ، دار الثقافة، لبنان 1966.

- الوافي بالوفيات : دار النشر فراتز شتاينر بقبادن، ج 1، ط 2، باعتناء

هلموت ريتر 1381 - 196، ج 2 - 6، باعتناء س ديدرينغ، من سنة 1390 - 1970 الى 1394 - 1974 في طبعة ثانية، ج 7 تحقيق احسان عباس، 1389 - 196، ج 8 تحقيق محمد يوسف نجم، 1391 - 1971، ج 9 تحقيق يوسف فان اس : 1394 - 1974 ، والأجزاء المخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس : ج 12 رقم 13320، ج 13 رقم 13317، ج 15-17 رقم 13319، ج 21 - 23 رقم 13324، ج 24 - 26 رقم 13321 .

ابن أبي الضياف (أحمد) :

- اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان : تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار بتونس، ج 1، 1963 .

طاش كبرى زادة (أحمد بن مصطفى) :

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة : 3 أجزاء، حيدر آباد، الهند، د.ت .

الطالبي (محمد) :

- دراسات في تاريخ افريقية في الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط : نشر الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الانسانية، السلسلة 4 المجلد 26، تونس 1982 .

الطباع (عبد الله) :

- كتاب الحلة السيراء لأبي عبد الله بن الأبار القضاعي : دار النشر للجامعيين، بيروت 1962.

الطمار (محمد) :

- تاريخ الأدب الجزائري : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر د.ت .

ابن الطواح (عبد الواحد بن محمد التونسي) :

- سبك المقال لفك العقال : تقديم وتحقيق عبد الواحد الزغلامي، في اطار شهادة الكفاءة في البحث بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، اشراف الأستاذ سعد غراب، تونس 1978، نسخة مرقونة بمكتبة الكلية رقم 228 .

الطيار (رضا عبد الجليل) :

- الدراسات اللغوية في الأندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري، عصر المرابطين والموحدين : نشر، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد 1980 .

ابن عاشور (محمد الطاهر) :

- أليس الصبح بقريب : الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1967 .

ابن عاشور (محمد الفاضل) :

- أعلام الفكر الاسلامي في تاريخ المغرب العربي : مكتبة النجاح، تونس، د.ت .

ابن عامر (أحمد) :

- الدولة الحفصية، صفحات خالدة من تراثنا المجيد : دار الكتب الشرقية، تونس 1974 .

العامري (محمد الهادي) :

- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول : الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1974 .

عباس (احسان) :

- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين : سلسلة المكتبة الأندلسية، دار الثقافة، ط 2، بيروت 1971 .

ابن عبد الله (حسين) :

- علاقة العلماء بالسلطة في افريقية في العهد الحفصي 625 - 749 / 1228 - 1348 : في اطار شهادة الكفاءة في البحث، قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس، اشراف الأستاذة منيرة الرمادي، تونس 1982، نسخة مرقونة بمكتبة قسم التاريخ .

ابن عبد الملك : انظر المراكشي .

العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي) :

- الرحلة المسماة الرحلة المغربية : تحقيق وتقديم محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط 1968 .

عبد الوهاب (حسن حسني) :

- ورقات : 3 أجزاء، مكتبة المنار، تونس 1965، 1966، 197 .

- شهيرات التونسيات : ط 2، مكتبة المنار، تونس 1966 .

- مجمل تاريخ الأدب التونسي من فجر الفتح العربي لافريقية الى العصر الحاضر : مكتبة المنار، تونس 1968 .

- خلاصة تاريخ تونس : الدار التونسية للنشر، ط 4، تونس 1968 .

- ديوان الأدب التونسي : الرئيس ابن أبي الحسن : فصل نشر بمجلة البدر التونسية، ج 4، مجلد 2، منتصف ربيع الثاني 1340، ص 228 - 236 .

ابن عذاري (محمد بن سعيد المراكشي) :

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : 4 أجـزاء، ج 1 و 2 تحقيق ج.س. كولان ومراجعة ليفي بروفنسال، ج 3 تحقيق ليفي بروفنسال، ج 4 تحقيق احسان عباس ونشرته دار الثقافة، بيروت 1967 مضافا الى الأجزاء الثلاثة التي صورتها عن الطبعة الأولى ليدن 1848 و 1929 .

ابن عزم (جمال الدين محمد بن عمر التونسي) :

- دستور الاعلام بمعارف الأعلام : مخطوط مصور بمكتبتنا عن مكتبة خدانجن بالهند رقم 1045 .

ابن عصفور (أبو الحسن علي بن مؤمن الإشبيلي) :

- المقرب : جزآن، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد 1391 - 1971 و 1392 - 1972 .

- ضرائر الشعر : تحقيق السيد ابراهيم محمد، دار الأندلس، بيروت 1980 .

علام (عبد الله علي) :

- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي : سلسلة مكتبة الدراسات التاريخية، دار المعارف، مصر 1971 .

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : 4 مجلدات، بيروت، طبع بالافسات عن المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت .

العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله الدمشقي) :

- وصف افريقية والمغرب والأندلس في أواسط القرن الثامن للهجرة، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : نشر وتعليق حسن حسني عبد

الوهاب، مطبعة النهضة، تونس د.ت. وأعيد نشره « بكراسات تونس »، ومنه فصلة صدرت سنة 1974 .

عنان (محمد عبد الله) :

- ابن خلدون حياته وتراثه الفكري : القاهرة 1933 .

- لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري : مكتبة الخانجي، مصر 1388 - 1968 .

عناني (محمد زكريا) :

- الموشحات الأندلسية : سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1980 .

العوفي (عبد البر بن عبد القادر) :

- منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الآداب : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 15905 .

عون (عبد الرحمان) :

- أبو عبد الله الأبي وكتابه الاكمال : الدار العربية للكتاب، تونس 1983 .

العيادي (محسن حامد) :

- ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي : القاهرة 1972 .

الغبريني (أحمد بن عبد الله) :

- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية : تحقيق عادل نويهض، بيروت 1969 .

الغرناطي (أبو القاسم محمد بن أحمد) :

- رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة : جزآن، مطبعة السعادة، مصر 1344 .

ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن علي) :

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب : تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، جزآن، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة 1972 - 1976 .

فيشل (والترج) :

- لقاء ابن خلدون لتيمورلنك : ترجمة محمد توفيق، تقديم وتعليق د.مصطفى جواد، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت .

ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي) :

- درة الحجال في أسماء الرجال : تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، 3 أجزاء، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، 1390 - 1970 .

قباوة (فخر الدين) :

- ابن عصفور والتصريف : دار الأصمعي للنشر والتوزيع، حلب 1391-1971.

القرطاجني (أبو الحسن حازم) :

- ديوان حازم القرطاجني : تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت 1964.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس 1966.

- قصائد ومقطعات : تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس 1972 .

القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) :

- انباه الرواة على أنباء النحاة : 3 أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1369 - 1950 ، 1371 - 1952، 1374 - 1955.

القلصادي (أبو الحسن علي الأندلسي) :

- الرحلة، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978 .

القلشندي (أبو العباس أحمد بن علي) :

- صبح الأعشى في صناعة الانشاء : 14 جزءا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة 1963 .

ابن قنفذ (أبو العباس أحمد بن حسين بن الخطيب القسنطيني) :

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية : تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968 .

- الوفيات : تصحيح وتعليق هنرى بيريس، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية بالجزائر، طبع بمصر، د.ت. ونشر هذا النص في مجموع « ألف سنة من الوفيات »، تحقيق محمد حجي، الرباط 1396 - 1976 .

الكتاني (عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي) :

- فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات : جزآن، فاس 1346 - 1347 .

الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد) :

- فوات الوفيات : جزآن، طبعة بولاق، مصر 1299 .

كحالة (عمر رضا) :

- معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية : 15 جزءا ، مطبعة الترقي، دمشق 1957 - 1971 .

الكعاك (عثمان) :

- مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة 1958 .

الكناني (محمد بن صالح عيسى القيرواني) :

- تكميل الصلحاء والاعيان لمعالم الايمان في اولياء القيروان : تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس 1970 .

كنون (عبد الله) :

- النبوغ المغربي في الأدب العربي : 3 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1961 .

- أدب الفقهاء : دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت .

الكواش (صالح) :

- تاريخ الدولة الحفصية : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 338 .

ليون الافريقي : انظر الوزان .

مبارك (زكي) :

- المدائح النبوية في الأدب العربي : دار الشعب، القاهرة 1391 - 1971 .

مجهول :

- الحلل الموشية في الأخبار المراكشية : منسوبا غلطا الى لسان الدين بن الخطيب، تونس 1329 .

محمود (عبد الحليم) :

- أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله : سلسلة أعلام العرب، القاهرة 1967 .

مخلوف (محمد بن محمد) :

- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، طبعة بالأوفسات عن الطبعة الأولى الصادرة سنة 1349 عن المطبعة السلفية ومكتبتها .

المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الاوسي) :

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة : السفر الأول، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الرابع والخامس تحقيق احسان عباس، بيروت 1965 - 1973 .

ابن مرزوق (محمد التلمساني) :

- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن : دراسة وتحقيق د.ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمودبوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1401 - 1981 .

المرزوقي (محمد) :

- قابس جنة الدنيا : مكتبة الخانجي، القاهرة 1962 .

ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي) :

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : الجزائر 1326 - 1908.

المسراتي (محمد جمال الدين بن القاسم بن أبي خلف القيرواني) :

- بلوغ السول في الصلاة والسلام على الرسول : مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقم 3217 .

المسعودي (محمد الباجي) :

- الخلاصة النقية في أمراء افريقية : ط 1، تونس 1283 .

المصراطي (علي مصطفى) :

- أعلام من طرابلس : دار مكتبة الفكر، طرابلس 1972 .

المطوي (محمد العروسي) :

- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : دار الكتب الشرقية، تونس 1954 .

المعري (أبو العلاء) :

- ملقى السبيل، رسالة في الوعظ والحكم : تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دمشق 1330 .

المعموري (الطاهر) :

- جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي : الدار العربية للكتاب، تونس 1980 .

- الدراسات القرآنية والحديثية في العهد الحفصي في القرنين السابع والثامن : شهادة الدكتورا الحلقة الثالثة، كلية الشريعة وأصول الدين بتونس، 1400 - 1981، نسخة مرقونة بمكتبة هذه الكلية .

المقرى (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني) :

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب : 8 أجزاء، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 .

- أزهار الرياض في أخبار عياض : 5 أجزاء الثلاثة الأولى ضبط وتحقيق وتعليق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنوات 1939، 1940، 1941، وأعيد طبعها بالأوفسات تحت اشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الامارات العربية المتحدة سنة 1978، وطبع كذلك الجزآن الأخيران : ج 4، تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت، المغرب 1978، ج 5، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، المغرب 1979 .

مقلد (محمد يوسف) :

- شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون : بيروت 1962 .

منصور (عبد الحفيظ) :

- فهرس مخطوطات حسن حسني عبد الوهاب : المعهد القومي للآثار، تونس 1975 .

المنوني (محمد) :

- العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين : ط 2، الرباط 1397 - 1977 .

المهدي (صالح) :

- الموسيقي العربية تاريخها وأدبها : الدار التونسية للنشر، تونس 1979 .

بن ميلاد (أحمد) :

- تاريخ الطب العربي التونسي، تونس 1980 .

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي) :

-تاريخ قضاة الأندلس، وهو كتاب « المرتبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا » : نشر إ. ليفي بروفنسال، القاهرة 1948 .

النفزاوي (محمد بن محمد) :

- الروض العاطر في نزهة الخاطر : مطبعة المنار، تونس، د.ت .

نويهض (عادل) :

- معجم أعلام الجزائر : المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1971 .

النيفر (محمد) :

- عنوان الأريب عمّن نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب: ج 1، تونس 1351 .

النيفر (محمد الشاذلي) :

- ابن راشد القفصي : دراسة طبعت ضمن كتاب «دراسات في اللغة والحضارة » من أعمال ملتقى ابن منظور، سنة 1974، نشر وزارة الشؤون الثقافية، تونس 1975، ص 89 - 120 .

النيال (محمد البهلي) :

- الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي : مكتبة النجاح، تونس 1384 - 1965.

- المكتبة الأثرية بالقيروان، عرض، دليل : نشر دار الثقافة، تونس 1963 .

الهيلة (محمد الحبيب) :

- الامام البرزلي : دراسة نشرت في « النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين »، السنة 1، العدد 1، 1391 - 1971، ص 169 - 233 .

- الزاوية وآثارها في المجتمع القيرواني بداية من منتصف القرن السابع الى نهاية القرن الثامن الهجري : دراسة نشرت في « المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية »، السنة 13، 1975، العدد 40 - 43.

الوادي آشي (محمد بن جابر) :

- البرنامج : تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1400 هـ - 1980 .

وافي (علي عبد الواحد) :

- عبد الرحمان بن خلدون: سلسلة الأعلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1975 .

الوردي (علي) :

- منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته : جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة 1962 .

الوزان (الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الافريقي) :

- وصف افريقيا: ج 2، ترجمه من الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط 1402 - 1982 .

الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي) :

- الحلل السندسية في الأخبار التونسية : تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، 4 أجزاء، الدار التونسية للنشر، تونس 1970، وجزء وجزء آخر عن دار الكتب الشرقية، تونس 1973 .

ياقوت (بن عبد الله الحموي) :

- معجم البلدان 8 أجزاء في 4 مجلدات، القاهرة 1342 - 1960 .

المراجع الأجنبية

ABDEL - WAHEB (H. H.)

- Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie, publication de l'Université de Tunis, Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, 1971 Connaissance du Maghreb I Tunis, 1971 Tiré à part des Cahiers de Tunisie. XVIII (1970) p 149-169 XXIV(1917) p. Reimpression extrait de la Revue Tunisienne 305-316 et 371-379.

ABDESSALEM Mohamed

- Le thème de la Mort dans la poésie arabe des origines à la fin du IIIe./IXe siècle. Pub. de l'Université de Tunis.Faculté des Lettres et volume des Sciences Humaines, 6e. série Philosophie - Littérature, X, Tunisie 1977.

ARRIBAS Palan (Marioano)

- Contribution à l'histoire du Maghreb : Une lettre de Martin d'Aragon à Abu Faris de Tunis in I.B.L.A. 1955, n 71, p. 349-356.

BEL* Alfred

- La Religion Musulmane en Berbérie : esquisse d'Histoire et de Sociologie religieuse, t : 1 (Etablissement et développement de l'Islam en Berbérie du VIIe. au XXe. siècle, Paris, (Librairie Paul Geuthner) 1938.

BELKHODJA Habib

- Hazim al-qartaganni, Publication de l'I.B.L.A, n 29, Tunis 1967.

BEN CHEKROUN (M.A.)

- La vie intellectuelle Marocaine sous les Mérinides et les Wattaside (XIIIe.-XVIe. siècles), Rabat, 1974.

BOUYAHIA Chedly

- La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides (362-555 de l'H./ 972-1160 de J.C.), S.T.D. Tunis, 1972.

BROCKELMANN (C.)

- Geschichte du arabischen Litteratur, 2 vol., Leyde 1943-1949, Supplementband, 3 vol., Leyde 1937-42 (G.A.L.) (S.).

BRUNSCHVIG Robert

- La Berbérie Orientale sous les Hafsides des origines à la fin du XVe siècle, 2 t., Librairie Adrien-Maisonneuve, Paris 1982.
- Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe. siècle, Abdalbasit B. Halil et Adorne, Publication de l'Institut d'Etudes Ve., Larose Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger VII, Paris Editeurs, 1936.
- Etudes d'Islamologie, Avant-propos et bibliographie de l'auteur par abdelmagid Turki, 2t., Paris, Editions G.P Maisonneuve et Larose, 1976.
- Un Calife Hafside méconnu, in Revue Tunisienne, 1930, p. 38-48.
- La Tunisie au Moyen Age, in Initiation à la Tunisie, Paris 1950, p. 73-97.
- Note sur un traité conclu entre la Tunisie et l'Empereur Frederic, in Revue Tunisienne, 1932.
- Ibn As-Samma, histoire hafside, in Annales Institut Etudes Orientales, Alger 1934-35 p. 139-232.
- Quelques remarques historiques sur les Medersas de Tunisie, Revue Tunisienne, 1931, p. 261-285.
- Un document sur une princesse Hafside de la fin du XVIe. siècle, in Revue Africaine, Alger 1937, p. 81-92.

- La Tunisie dans le haut Moyen Age, Le Caire 1948, Conférences de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. 1.

- Documents inédits sur les relations entre la couronne d'Aragon et la Berbérie Orientale au XIVe. siècle, in Annales Institut Etudes Orientales, Alger 1936, p. 235-265.

DEREMBOURG (H.) et LEVI-PROVENÇAL (E.)

- Les manuscrits arabes de l'Escurial, 3t., Paris 1884, 1903,1928.

DERMENGHEM Emile

- Le culte des saints dans l'Islam Maghrébin, 4 éd. Paris 1954.

DOULATLI Abdelaziz

- Tunis sous les Hafsides, évolution urbaine et activité architecturale, Institut National d'archéologie et d'Art, Tunis 1976.

DE EPALZA (M.)

- L'auteur de la <<Tuhfat al-arib>>, Anselm Turmeda, (Abdallah Al-Tarjuman), in I.B.L.A, 28e année, n 111, 3e trimistre 1965, p. 261-290.

DE FRANCH Ramon Sugranyes

- Raymond Lulle, Docteur dees missions, avec un choix de textes traduits et annotés, la Suisse 1954.

ENCYCLOPEDIE de l'ISLAM

- 4 vol.+1 suppl., Paris-Leyde, 1908-4 (E.I.) ; 2e éd., Paris-Leyde, en cours de publication depuis 1954. (E.I.2).

GAUTIER (E.F.)

- Le passé de l'Afrique du Nord, petite bibliothèque Payot, Paris 1952.

IBN BATTUTA

- Voyages d'Ibn Battûta, texte arabe et traduction par C. Defremery et

B.R.Sanguinetti, 4t., collection Unesco d'oeuvres représentatives, Paris 1979.

IBN KHALDOUN

- Le voyage d'Occident et d'Orient, traduit de l'arabe et présenté par Abdesselem Cheddadi, éd. Sindbad, Paris 1980.

IDRIS Hady Roger

- La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1962.

JULIEN Charles André

- Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie - Algérie - Maroc) de la conquête arabe à 1830, t.2, 2e éd. revue et mise à jour par Roger Le Tourneau, Payot, Paris 1956.

KRESS Hans Joachim

- Eléments structuraux andalous dans la genèse de la géographie culturelle de la Tunisie, in I.B.L.A. 1980, n 145.

LACOSTE Yves

- Ibn Khaldoun, Naissance de l'histoire, passé du tiers monde, Paris 1966.

LAROUI Abdallah

- L'histoire du Maghreb, 2t., Maspéro, Paris 1976.

LEVI-PROVINÇAL

- Documents inédits d'histoire almohade, Paris 1928.

MAGNIN Jean

- Le testament spirituel d'abou Zakariyya, in I.B.L.A., 1947, p. 393-407.
- Les exhortation d'Al Dh'arif (Sidi Driff) Soufi Tunisien du VIIe/XIVe. siècle (texte, traduction et notes), in I.B.L.A., 1950, p. 375-386, n 52.

MERAD (A.)

- L'autobiographie d'Ibn Khaldoun, in I.B.L.A., 1956, p. 53-64 n 73.

MONCHICOURT (Ch.)

- Etudes Kairouanaises : Kairouan et les Chabbia (1450-1590), Tunis 1939.

al-NAFZAWI (Mouhammad)

- La Prairie parfumée où s'ébattent les plaisirs, traduction René R. Khawam, éd. Phébus, Paris 1976.

PERES Henri

- La poésie Andalouse en arabe classique au XIe. siècle ses traits aspects généraux, ses principaux thèmes et sa valeur documentaire, 2e. éd., Paris 1953.

QUENEMEUR (J.)

- Tunis chantée par ses poètes (le poète Ibn Abdesselam), in I.B.l.A., 1947, p. 181-187.

SEBAG Paul

- Remarques sur l'histoire de la grande mosquée de Kairouan, in I.B.L.A., 1962, p. 245-256.
- Une relation inédite sur la prise de tunis par les Turcs en 1574, Publication de l'Université de Tunis, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Tunis, 5e. série, source de l'Histoire Tunisienne, vol. IV, Tunis 1971.
- Une nouvelle de Bandello, tiré à part (Moulay Hassen et Moulay Hamida), in I.B.L.A., 1971, n 127.

DE SLANE

- Catalogue des Manuscrits Arabes, Bibliothèque Nationale, Paris 1883-1895.

SOLIGNAC

- Travaux hydrauliques hafsides de Tunis, extrait du 2e. congrès la Fédération des Sociétés Savantes d'Afrique du Nord, 1936.

SOLVET (Ch.)

- Description des pays du Maghreb, texte arabe d'Aboul'Féda avec traduction française et notes, Alger 1939.

TALBI Mohamed

- Etudes d'Histoire Ifriqiyenne et de civilisation Musulmane médiévale, Publication de l'Université de Tunis, Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, 4e. série : Histoire, vol. XXVI, Tunis 1982.

al-TIFACHI Ahmad

- Les Délices des coeurs ou ce que l'on ne trouve en aucun livre, traduction René R. Khawam, éd. Phébus, Paris 1981.

فهرس الأعلام والأماكن (*)

(*) مراعاة للتخفيف استثنينا الملاحظات وفصل المصادر والمراجع والفقرات البيبليوغرافية في القسم الأول وكذلك مراحل رحلة التجاني وأهم الأحداث السياسية والثقافية، ولم نفهرس اسم الجلالة ولا اسم النبي ولا لفظة تونس موضوع الأطروحة. ولم نراع في الترتيب لفظتي : ابن وأبو. أما الأرقام الغليظة فهي تشير الى ترجمة المذكور .

فهرس المؤلفات

1) حسب العناوين (*)

(*) خصصنا فهرسين للمؤلفات، الاول حسب العناوين والثاني حسب المؤلفين وذلك بغية التوضيح، وهما فهرسان متكاملان. واستثنينا هنا، مراعاة للتخفيف أيضا، الملاحظات وفصل المصادر والمراجع والفقرات البيبليوغرافية في القسم الأول. ولم نراع في الترتيب ألفاظ : ابن وأبو وكتاب ورسالة .

2) حسب المؤلفين

الفهرس العام

القسم الثالث

الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا

البـاب الأول

الشعـــــر

الباب الثاني

النثر

تم طبع هذا الكتاب
بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية



طبع
المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

الثمن : 11.000 د

ر د م ك 4 - 2 - 9920 - 9973